

شبح الحديقة

وقصص أخرى

المغامرات المثيرة



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي – الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٠

رقم الإيداع : ١٩٩٠ / ٨٣٧٧

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٠١٢ - ٥

طبع بمطابع دار المعارف



المغامرات المثيرة

شبح الحديقة



تأليف : س . هـ . بيرتون

أعدها بالعربية : محمد حلمي محمود

راجعها : الدكتور إبراهيم عوض

رسوم : حسن عبد الستار

مكتبة لبنان

بيروت

تلُّ أولدكاسِل

كانَ السَّيِّدُ روبِنْسون يَعيشُ بِمُفْرَدِهِ في دارٍ صَغيرَةٍ أنيقَةٍ ، تَقَعُ في الشّارِعِ الرَّئيسِيِّ في دَنْبول ، وَهِيَ مَدينَةٌ صَغيرَةٌ تَقَعُ في غَرْبِ إنْجِلْترا . وَكانَ يَتَمَتَّعُ بِالثَّراءِ ، وَلَمْ يَكُنْ في حاجَةٍ لِلْعَمَلِ . وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ يَوْماً بِالوَحْدَةِ ؛ إِذْ كانَ لَدَيْهِ الكَثيرُ مِنَ الكُتُبِ في دارِهِ الصَّغيرَةِ ، فَقَدْ كانَ قارِئاً نَهِماً . وَبِجانِبِ هِوايَةِ القِراءَةِ ، كانَ روبِنْسون مُغْرَماً بِالسَّيْرِ ، وَكانَ دائِماً ما يَرْتادُ المُروجَ حَوْلَ مَدينَةِ دَنْبول .

وَكانَتِ السَّيِّدَةُ وِلز تَأْتي إِلى المَنْزِلِ كُلَّ يَوْمٍ لِتَنْظيفِهِ وَطَهْيِ الطَّعامِ لِلسَّيِّدِ روبِنْسون ، وَ كانَتْ تُحِبُّ الكَلامَ كَثيراً في أَيِّ مَوْضوعٍ يَعِنُّ لَها أَوْ يَشْغَلُ بالَها . وَ كانَ السَّيِّدُ روبِنْسون يَقولُ لِأَصْدِقائِهِ إِنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَشْعُرَ بِالوَحْدَةِ ما دامَتِ السَّيِّدَةُ وِلز تَعْمَلُ عِنْدَهُ .

وَفي أَحَدِ أَيّامِ الرَّبيعِ كانَ السَّيِّدُ روبِنْسون يَتَنَزَّهُ بَيْنَ التِّلالِ ، وَكانَتِ الشَّمْسُ ساطِعَةً وَالطُّيورُ تُغَرِّدُ ، فَأَحَسَّ بِالسَّعادَةِ كَعادَتِهِ كُلَّما تَنَزَّهَ بَيْنَ التِّلالِ . وَكانَتِ المُروجُ المُنْعَزِلَةُ تُفْعِمُ قَلْبَهُ بِالسَّعادَةِ ، وَكانَ الهَواءُ العَليلُ ، وَالهُدوءُ السّابِغُ ، وَالعُشْبُ وَالتِّلالُ المُمْتَدَّةُ أَمامَهُ ، تَجْعَلُهُ يُقْبِلُ عَلى الحَياةِ . وَبَيْنَما كانَ سائِراً في طَريقٍ لِلْمُشاةِ ، تَعَوَّدَ أَنْ يَسيرَ فيهِ ، إِذا بِهِ يَلْحَظُ دَرْباً يَنْحَرِفُ إِلى اليَسارِ ، فَقالَ لِنَفْسِهِ: « ما أَغْرَبَ هذا ! إِنَّني لَمْ أَلْحَظْ هذا الدَّرْبَ مِنْ قَبْلُ .»



انْحَرَفَ السَّيِّدُ رُوبِنْسون عَنِ الطَّريقِ المَأْلوفِ ، وَاتَّبَعَ الدَّرْبَ الَّذي عَلى يَسارِهِ ، فَوَجَدَهُ يَتَّخِذُ طَريقًا مُتَعَرِّجًا بَيْنَ أَحَدِ الوُدْيانِ وَأَحَدِ التِّلالِ العالِيَةِ . وَكانَ يَشُقُّ الوادِيَ نُهَيْرٌ لَطيفٌ ، فَقالَ لِنَفْسِهِ : « هذا مِنْ أَجْمَلِ الأَماكِنِ الَّتي وَقَعَتْ عَلَيْها عَيْناي .» وَكانَ المَكانُ خالِيًا مُنْعَزِلاً ، وَهُوَ ما كانَ يُصادِفُ هَوًى في نَفْسِهِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ أَخْرَجَ خَريطَةً وَنَظَرَ فيها فَوَجَدَ مَكانَ التَّلِّ عَلَيْها ، وَكانَ اسْمُهُ تَلَّ أُولْد كاسِل .

وَبَعْدَ أَنْ سارَ أَكْثَرَ مِنْ كيلومِتْرٍ ، أَلْفى نَفْسَهُ عِنْدَ تَلِّ أُولْد كاسِل ، فَقالَ لِنَفْسِهِ : « سَأَتَسَلَّقُ هذا التَّلَّ وَأَسْتَريحُ عَلى قِمَّتِهِ ، وَلا شَكَّ أَنَّ المَنْظَرَ سَيَكونُ جَميلاً مِنْ فَوْقُ .»

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ ارْتِقاءُ ذلِكَ التَّلِّ ؛ فَقَدْ كانَ عَلى السَّيِّدِ رُوبِنْسون أَنْ يَتَوَقَّفَ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، وَكانَ كُلَّما تَوَقَّفَ تَلَفَّتَ حَوْلَهُ فَبَدا لَهُ المَكانُ أَكْثَرَ غَرابَةً ، فَقالَ لِنَفْسِهِ : « إِنَّ هذا لَفَريدٌ !» لكِنَّهُ أَرْجَعَ هذا الشُّعورَ إِلى تَصْعيدِهِ المُسْتَمِرِّ في التَّلِّ . وَعِنْدَما بَلَغَ قِمَّةَ التَّلِّ نَظَرَ إِلى المُروجِ تَحْتَهُ فَلَمْ يُصَدِّقْ أَنَّ هذِهِ هِيَ المُروجُ الَّتي يَعْرِفُها ، فَقالَ لِنَفْسِهِ : « إِنّي أَعْرِفُ المَكانَ حَقَّ المَعْرِفَةِ ، بَيْدَ أَنَّهُ يَبْدو اليَوْمَ مُخْتَلِفًا . وَهذا طَبيعِيٌّ فَإِنَّني لَمْ أَصْعَدْ إِلى قِمَّةِ هذا التَّلِّ مِنْ

قَبْلُ . عَلى أَنَّهُ لا يَنْبَغي أَنْ أَدْهَشَ إِذا ما بَدَتِ الأَشْياءُ مُخْتَلِفَةً عِنْدَ النَّظَرِ إِلَيْها مِنْ هُنا ، وَعَلى الأَقَلِّ فَفي مَقْدوري أَنْ أُشاهِدَ ذلِكَ الدَّرْبَ الَّذي يُؤَدّي إِلى دَنْبول .»

وَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ فَرَأى قِمَّةَ التَّلِّ وَقَدْ غَطّاها العُشْبُ القَصيرُ ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ شَجَرٌ ، إِلاّ أَنَّهُ كانَ يوجَدُ جِدارٌ وَطيءٌ مُمْتَدٌّ في وَسَطِ المَكانِ ، فَصَعِدَ إِلَيْهِ السَّيِّدُ رُوبِنْسون ، وَوَجَدَهُ مُشَيَّدًا مِنَ الطّينِ وَمَكْسُوًّا بِالعُشْبِ . وَكانَ ارْتِفاعُهُ زُهاءَ مِئَةٍ وَعِشْرينَ سَنْتيمِتْرًا ، وَبَدا أَنَّهُ قَديمٌ لِلْغايَةِ .

قالَ السَّيِّدُ رُوبِنْسون لِنَفْسِهِ : « تُرى مَنْ بَنى هذا ؟» ثُمَّ هَبَطَهُ مِنَ النّاحِيَةِ الأُخْرى ، وَجَلَسَ عَلى الأَرْضِ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ يَتَمَتَّعُ بِدِفْءِ الشَّمْسِ ، وَما لَبِثَ ، بِسَبَبِ الهُدوءِ وَالرّاحَةِ ، أَنْ راحَ في سُباتٍ عَميقٍ .

عِنْدَما صَحا مِنْ نَوْمِهِ كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ مالَتْ لِلْمَغيبِ ، فَانْتَفَضَ واقِفًا وَتَسَلَّقَ الجِدارَ إِلى النّاحِيَةِ الأُخْرى ، وَشَرَعَ يُهَرْوِلُ مُتَّخِذًا سَبيلَهُ إِلى دَنْبول ، لأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَجِنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَهُوَ فَوْقَ التَّلِّ . وَحينَ بَلَغَ السَّيِّدُ رُوبِنْسون مُنْتَصَفَ الطَّريقِ تَقْريبًا ، تَمَلَّكَهُ الخَوْفُ فَجْأَةً ؛ إِذْ أَحَسَّ أَنَّ أَحَدًا ما كانَ يُراقِبُهُ مِنْ فَوْقِ قِمَّةِ التَّلِّ .

قالَ لِنَفْسِهِ : « لا تَكُنْ أَحْمَقَ ! إنَّ قِمَّةَ التَّلِّ خَلْفَ ظَهْرِكَ ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هذا التَّأَكُّدُ أَنَّ أَحَداً يُراقِبُكَ ؟» وَكانَ شُجاعاً فَقَرَّرَ أَنْ يَتَوَقَّفَ وَيَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ ، فَإذا كانَ ثَمَّةَ مَنْ يُراقِبُهُ فَلْيَسْأَلْهُ عَنِ السَّبَبِ .

لكِنَّهُ تَذَكَّرَ فَجْأَةً الحُلْمَ الَّذي رَآهُ وَهُوَ عَلى التَّلِّ ، فَلَمْ يَتَوَقَّفْ أَوْ يَلْتَفِتْ وَإِنَّما راحَ يَعْدو مُسْرِعاً ناحِيَةَ دَنْبول ، وَلَمْ يُبْطِئْ حَتّى بَلَغَ ذَلِكَ الطَّريقَ الَّذي يَعْرِفُهُ . وَكانَ قَدْ سَمِعَ أَصْواتاً أَثْناءَ نَوْمِهِ فَوْقَ قِمَّةِ التَّلِ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْها أَوْ يَعْرِفْ لُغَتَها . كُلُّ ما كانَ مُتَأَكِّداً مِنْهُ أَنَّها لَمْ تَكُنِ الإِنْجليزِيَّةَ . كَذَلِكَ لَمْ يَعْرِفْ كَمْ عَدَدُ الأَصْواتِ المُخْتَلِفَةِ الَّتي سَمِعَها ؛ أَكانَتْ أَصْواتَ رِجالٍ أَمْ نِساءٍ ؟ لَمْ يَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ مُوقِناً مِنْ أَيِّ شَيْءٍ رَآهُ في حُلْمِهِ ، لكِنَّ الأَصْواتَ كانَتْ تَبْدو غاضِبَةً . كَما عَرَفَ ، وَهُوَ نائِمٌ ، أَنَّ المُتَكَلِّمينَ كانوا يَنْظُرونَ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَراهُمْ وَلكِنَّهُمْ كانوا يَرَوْنَهُ .

وَعِنْدَما اسْتَيْقَظَ كانَ قَدْ نَسِيَ الحُلْمَ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يَشْغَلُ بالَهُ في ذَلِكَ الوَقْتِ ، إلا العَوْدَةُ إِلى دَنْبول قَبْلَ أَنْ يُسْدِلَ اللَّيْلُ أَسْتارَهُ . غَيْرَ أَنَّ الحُلْمَ عادَ إِلى ذاكِرَتِهِ عِنْدَما كانَتْ تِلْكَ العُيونُ الخَفِيَّةُ تَرْقُبُهُ مِنْ فَوْقِ قِمَّةِ التَّلِّ .

وَأَغَذَّ السَّيِّدُ روبنْسون السَّيْرَ إِلى دارِهِ وَفي خاطِرِهِ أَشْياءُ كَثيرَةٌ . لَقَدْ كانَ هُناكَ لُغْزٌ غامِضٌ في ذَلِكَ المَكانِ ، وَهُوَ يَكْرَهُ الأَلْغازَ .

وَكانَتِ السَّيِّدَةُ وِلْز قَدْ تَرَكَتْ لَهُ طَعامَ العَشاءِ عَلى المائِدَةِ ، فَتَناوَلَهُ السَّيِّدُ روبنْسون عَلى عَجَلٍ ، دونَ أَنْ يُلاحِظَ تَقْريباً ماذا كانَ يَأْكُلُ . وَبَعْدَ تَناوُلِ الطَّعامِ دَفَعَ كُرْسِيَّهُ إِلى الوَراءِ وَغادَرَ حُجْرَةَ الطَّعامِ ، ثُمَّ مَضَى إِلى مَكْتَبِهِ وَتَناوَلَ بِضْعَ وَرَقاتٍ ، وَراحَ يَكْتُبُ فيها تَقْريراً مُفَصَّلاً عَنْ كُلِّ ما حَدَثَ في تَلِّ أولْد كاسِل في ذَلِكَ اليَوْمِ . وَوَقَّعَ التَّقْريرَ وَذَيَّلَهُ بِالتّاريخِ ، ثُمَّ أَسْنَدَهُ إِلى المِحْبَرَةِ حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَراهُ أَيُّ امْرِئٍ يَقْتَرِبُ مِنَ المَكْتَبِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ تَناوَلَ الشّايَ ثُمَّ أَوى إِلى فِراشِهِ مُبَكِّراً ، وَقَدْ وَطَّدَ العَزْمَ عَلى حَلِّ لُغْزِ تَلِّ أولْد كاسِل .

وَفي السّاعَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التّالي كانَ السَّيِّدُ روبنْسون يَصْعَدُ التَّلَّ ، وَكانَ يَتَقَدَّمُ في هُدوءٍ وَتُؤَدَةٍ ، وَكانَ بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالفَيْنَةِ يَتَوَقَّفُ وَيُحَدِّقُ إِلى ما بَقِيَ أَمامَهُ مِنَ التَّلِّ ، وَعِنْدَما كانَ يَتَأَكَّدُ أَنَّ أَحَداً لا يُراقِبُهُ يُواصِلُ سَيْرَهُ .

وَأَخيراً بَلَغَ قِمَّةَ التَّلِّ . لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ شَيْءٌ يَتَحَرَّكُ أَوْ شَخْصٌ يَتَكَلَّمُ ، وَكانَتِ القِمَّةُ خالِيَةً ، فَتَنَفَّسَ نَفَساً عَميقاً . وَطَفِقَ يَسيرُ نَحْوَ الجِدارِ وَقَدْ ثَبَتَ لَدَيْهِ الآنَ أَنَّ سِرَّ تَلِّ أولْد كاسِل كانَ يَكْمُنُ



وراءَ ذلكَ الجدارِ ، وَهُوَ الآنَ سَيَتَسَلَّقُهُ وَيَحُلُّ سِرَّهُ الغامِضَ . وَعلى الرَّغْمِ مِنْ شَجاعَتِهِ كانَ قَلْبُهُ يَدُقُّ بِعُنْفٍ . إنَّ عَلَيْهِ الآنَ أنْ يَعْرِفَ سِرَّ مَخاوِفِ اليَوْمِ السّابِقِ ، وَإنَّ عَلَيْهِ أنْ يَتَسَلَّقَ الجِدارَ ؛ لأنَّهُ لَنْ يَسْتَمْتِعَ أَلْبَتَّةَ بِمَشاهِدِ التِّلالِ البَديعَةِ إذا هُوَ فَرَّ هارِباً . وَفَجْأَةً أَبْطَأَتْ خُطُواتُهُ ثُمَّ تَوَقَّفَ ، وَكانَ رَأْسُهُ ثابِتاً ، بَيْدَ أَنَّ عَيْنَيْهِ كانَتا لا تَكُفّانِ عَنِ الحَرَكَةِ مِنْ جانِبٍ لآخَرَ ، فَلَقَدْ تَحَرَّكَ شَيْءٌ ما خَلْفَ ذَلِكَ الجِدارِ ، وَطَرَقَ سَمْعَهُ بَعْضُ الأَصْواتِ . لا بُدَّ إذاً أنْ يَكْتَشِفَ عَدُوَّهُ الخَفِيَّ وَعَلَيْهِ ألا يُبْدِيَ مَخاوِفَهُ ؛ فَوَقَفَ هُنالِكَ مُنْتَصِباً ثابِتاً ، وَوَجْهُهُ نَحْوَ الجِدارِ .

وَفَجْأَةً أَصابَهُ حَجَرٌ صَغيرٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ بِقُوَّةٍ هائِلَةٍ ، فَخَرَّ عَلى الأَرْضِ دونَ أدْنى صَوْتٍ . وَكانَتْ قِمَّةُ أولْدكاسِل هادِئَةً وَخالِيَةً ، لَكِنَّ السَّيِّدَ روبِنْسون كانَ راقِداً بِلا حَراكٍ أَمامَ الجِدارِ المَكْسُوِّ بِالعُشْبِ .

وَفي صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي ، وَفي مَنْزِلِ السَّيِّدِ روبِنْسون ، رَفَعَتِ السَّيِّدَةُ وِلْز سَمّاعَةَ التِّليفون وَطَلَبَتْ مَرْكَزَ الشُّرْطَةِ وَأَبْلَغَتْهُمْ بِأَنَّ مَخْدومَها مُتَغَيِّبٌ ، وَقالَتْ لَهُمْ: « إنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ قَطُّ مِنْ قَبْلُ. لَقَدْ قُلْتُ لَكُمْ إنَّهُ لَيْسَ هُنا ، فَهُوَ لَمْ يَنَمْ في فِراشِهِ . أَجَلْ إنّي خائِفَةٌ ، وَأَخْشى أَنْ يَكونَ قَدْ أَصابَهُ مَكْروهٌ . أَرْجوكُمْ أنْ تَبْعَثوا

بأحدِ المسئولينَ إلى هُنا في الحالِ .»

وما انقضتْ غيرُ لحظاتٍ بعْدَ ذلِكَ حتّى كانَ أحدُ رجالِ الشُّرْطةِ يَدُقُّ البابَ .

قالتِ السَّيِّدةُ وِلز: « إنّهُ ليَسُرُّني مَجيئُكَ . ألْقِ بِنظْرةٍ على هذا .» قالتْ ذلِكَ وهِيَ تَصْطَحِبُ رَجُلَ الشُّرْطةِ إلى غُرْفةِ جُلوسِ السَّيِّدِ رُوبِنْسون ؛ فأرَتْهُ الأوْراقَ الّتي كانَ السَّيِّدُ رُوبِنْسون قَدْ تَرَكَها على مَكْتَبِهِ .

وبَدأَ رَجُلُ الشُّرْطةِ يقْرأُ ما كتَبَهُ السَّيِّدُ رُوبِنْسون على مَهْلٍ وبِعنايةٍ تامّةٍ ، ثُمَّ وَضعَ تِلْكَ الأوْراقَ في جَيْبِهِ قائلاً : « لابُدَّ أنْ أحْتَفِظَ بِهذِهِ الأوْراقِ . هَلْ رأيْتِهِ بِالأمْسِ ؟»

أجابَتْهُ السَّيِّدةُ وِلز : « نَعَمْ .» ثُمَّ أرْدفَتْ قائِلَةً : « ولكِنْ لِبِضْعِ دَقائِقَ فَقطْ ؛ إذْ إنَّهُ غادَرَ المَنْزِلَ مُبكِّرًا جِدًا ، وكُنْتُ أغْسِلُ أطْباقَ إفْطارِهِ عِنْدَما غادَرَ البَيْتَ .»

« هَلْ كانَ على ما يُرامُ ؟»

« نَعَمْ ؛ بَلْ كانَ أكْثَرَ هُدوءاً مِنَ المُعْتادِ ، لكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَريضاً.»

« هَلْ أخْبَرَكِ إلى أيْنَ كانَ ذاهِباً ؟»

« قالَ إنَّهُ كانَ ذاهِبًا لِلتَّرَيُّضِ بَيْنَ التِّلالِ .»

أوْمأَ رَجُلُ الشُّرْطةِ قائِلاً : « في التِّلالِ ؟ لَيْسَ في ذَلِكَ غَرابةٌ . هَلْ قالَ لَكِ شَيْئاً عَنْ مَكانٍ اسْمُهُ تَلُّ أولْد كاسِل ؟»

« لا ، لَمْ يَفْعَلْ .»

وَ وَضَعَ الشُّرْطِيُّ يَدَهُ في جَيْبِهِ وَتَحَسَّسَ التَّقْرِيرَ الَّذي كانَ السَّيِّدُ رُوبِنْسون قَدْ تَرَكَهُ على مَكْتَبِهِ ، وَقالَ : « حَسَنٌ . إنّي ذاهِبٌ لِلْبَحْثِ عَنْهُ فَوقَ تَلِّ أولْد كاسِل . مِسْكينٌ السَّيِّدُ رُوبِنْسون ! لَقَدْ خُيِّلَ إلَيْهِ أنَّ عَدُوًّا يَتَرَبَّصُ بِهِ هُناكَ . وَ يُؤْسِفُني أنْ يَكونَ قَدْ عَثَرَ عَلَيْهِ .»

وَبَعْدَ حَوالَى السّاعَةِ كانَ الشُّرْطِيُّ وَأحَدُ المُخْبِرينَ السِّرِّيينَ قَدْ عَثَرا عَلى جُثَّةِ السَّيِّدِ رُوبِنْسون مُلْقاةً أمامَ الجِدارِ فَوْقَ تَلِّ أولْد كاسِل.

قالَ الشُّرْطِيُّ بِصَوْتٍ خَفيضٍ وَهُوَ يُشيرُ إلى وَجْهِ القَتيلِ : « أُنْظُرْ إلى هَذا . إنَّهُ لأمْرٌ مُرَوِّعٌ ! تُرَى مَنْ ذا الَّذي فَعَلَ هذا بِهِ ؟»

أجابَهُ المُخْبِرُ : « لا أعْرِفُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّني أعْرِفُ ما فَعَلَهُ القاتِلُ .» ثُمَّ رَكَعَ بِجانِبِ الجُثَّةِ وَأشارَ إلى حَجَرٍ مُسْتَديرٍ كانَ مُلْقًى عَلى العُشْبِ بِجانِبِ رَأسِ القَتيلِ ، ثُمَّ تناوَلَ مِنْ جَيْبِهِ مِنْديلاً الْتَقَطَ بِهِ الحَجَرَ ، وَقالَ :

« وَالآنَ عَلَيْنا أنْ نُفَتِّشَ قِمَّةَ التَّلِّ . لَقَدْ كانَ هُناكَ بِالأمسِ شَخْصٌ ما يَتَرَبَّصُ بِالسَّيِّدِ رُوبِنْسون ، وَلا بُدَّ أنْ تَكونَ ثَمَّةَ آثارٌ على العُشْبِ ، فَابْحَثْ جَيِّداً عَنْ أيَّةِ آثارٍ لِأقْدام . أنْتَ تُفَتِّشُ الجانِبَ الأيْمَنَ وَأنا أبْحَثُ في الجانِبِ الأيْسَرِ . وَلْنَهْتَمَّ بِوَجْهٍ خاصٍّ بِالمَكانِ القَريبِ مِنَ الحائِطِ ؛ إذْ مِنَ المُحْتَمَلِ أنْ يَكونَ القاتِلُ قَدِ اخْتَبَأَ هُناكَ، فَابْحَثْ عَنْ آثارِ أقْدامٍ تَهْدي إلَيْهِ .»

وَقَضَيا أكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ في تَفْتيشِ تَلِّ أولْد كاسِل ، وَلَكِنْ بِدونِ جَدْوى . كانَتْ آثارُ أقْدامِ السَّيِّدِ رُوبِنْسون واضِحَةً ، وَكانَتْ تُؤَدّي ، مِنْ جانِبِ قِمَّةِ التَّلِّ المُواجِهِ لِدَنْبول ، إلى المَكانِ الَّذي يَرْقُدُ فيهِ الجُثْمانُ ، وَلا توجَدُ آثارُ أقْدامٍ خِلافَ ذَلِكَ .

قالَ المُخْبِرُ : « إذاً فَهَذا كُلُّ ما هُنالِكَ . لا شَيْءَ إلا رَجُلاً قَتيلاً، وَالحَجَرَ الَّذي أوْدى بِحَياتِهِ . يَجِبُ عَلَيْكَ العَوْدَةُ إلى مَرْكَزِ شُرْطَةِ دَنْبول ، فَإنَّنا نَحْتاجُ إلى مَنْ يُساعِدُنا في نَقْلِ الجُثَّةِ إلى الطَّريقِ .»

وَأشْعَلَ المُخْبِرُ السِّرِّيُّ سيجارَةً ، وَهُوَ جالِسٌ يَتَرَقَّبُ على قِمَّةِ التَّلِّ المُشْمِسَةِ ، وَنَظَرَ إلى جُثَّةِ السَّيِّدِ رُوبِنْسون وَ إلى الجِدارِ المَكْسُوِّ بِالعُشْبِ . كانَ يَوْماً رَبيعيّاً دافِئاً ، غَيْرَ أنَّهُ شَعَرَ فَجْأةً بِالبُرودَةِ ، فَنَهَضَ وَألْقى بِالسّيجارَةِ بَعيداً ، وَقَدِ اضْطَرَبَتْ أفْكارُهُ .

قالَ لِنَفْسِهِ : « قَتيلٌ وَحَجَرٌ صَغيرٌ مُسْتَديرٌ وَلا شَيْءَ خِلافَ ذَلِكَ . لَقَدِ ارْتَكَبَ القاتِلُ الجَريمَةَ هُنا على قِمَّةِ هَذا التَّلِّ ، ثُمَّ اخْتَفى ، وَما مِنْ آثارِ أقْدامٍ أوْ عَلامَةٍ ، أوْ أيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أنْ يَقودَني إلَيْهِ .» وَنَظَرَ أسْفَلَ التَّلِّ ، فَأحَسَّ بِالغِبْطَةِ إذْ وَجَدَ أشْخاصاً يَصْعَدونَ التَّلَّ . وَكانَ قَدْ مَرَّ عَلَيْهِ وَقْتٌ طَويلٌ وَهُوَ وَحْدَهُ فَوْقَ قِمَّةِ تَلِّ أولْد كاسِل مِمّا جَعَلَهُ يَشْعُرُ بِالخَوْفِ .

وَبَعْدَ مُضِيِّ بِضْعَةِ أيّامٍ قامَ المُخْبِرُ بِزِيارَةٍ لِمَكْتَبَةِ أوكْسمِنِسْتَر ، وَهِيَ مَدينَةٌ كَبيرَةٌ غَيْرُ بَعيدَةٍ عَنْ دَنْبول ، وَطَلَبَ مُقابَلَةَ مُديرِ المَكْتَبَةِ ، وَسَألَهُ : « ما الَّذي تَعْرِفُهُ عَنْ تَلِّ أولْد كاسِل ؟»

أجابَهُ مُديرُ المَكْتَبَةِ : « لَقَدْ كانَ مَكاناً **مُهِمّاً** قَبْلَ سِنينَ خَلَتْ.»

قالَ المُخْبِرُ السِّرِّيُّ : « **مُهِمّاً** ؟! أتَقولُ إنَّ تَلَّ أولْد كاسِل كانَ مَكاناً **مُهِمّاً** ؟! »

أجابَ الآخَرُ : « لا تَدْهَشْ ! إنَّني أتَحَدَّثُ عَنِ السُّكّانِ القُدامى الَّذينَ عاشوا هُناكَ مُنْذُ أكْثَرَ مِنْ ألْفِ سَنَةٍ ، وَقَدْ كانوا هُناكَ قَبْلَ أنْ تُصْبِحَ مَدينَتا أوكْسمِنِسْتَر وَ دَنْبول مَأهولَتَيْنِ بِوَقْتٍ طَويلٍ . وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ أحَدٌ يَعْرِفُ شَيْئاً عَنْ هاتَيْنِ المَدينَتَيْنِ . وَقَدْ بَنى السُّكّانُ القُدامى الجِدارَ المَوْجودَ فَوْقَ قِمَّةِ التَّلِّ ، وَمِنْ وَراءِ ذَلِكَ الجِدارِ كانوا يَرُدّونَ

عَلى أعْقابِهِمْ أعْداءَهُمُ الّذينَ قَدْ تُسوِّلُ لَهُمْ أنْفُسُهُمْ تَسلُّقَ ذَلِكَ التّلِّ .»

قالَ المُخْبِرُ بِبُطْءٍ : « فَهِمْتُ .» ثُمَّ وَضَعَ حَجَراً صَغيراً مُسْتَديراً عَلى مِنْضَدَةِ المَكْتَبَةِ مُسْتَفْسِراً : « ما الّذي عِنْدَكَ لِتَقولَهُ لي عَنْ هَذا؟»

اِلْتَقَطَهُ مُديرُ المَكْتَبَةِ وَأنْعَمَ فيهِ النَّظَرَ وَقالَ : « لَقَدْ وَجَدْتَهُ طَبْعاً فَوْقَ تَلِّ أوْلْد كاسِل .»

«أجَلْ ؛ وَلكِنْ كَيْفَ عَرَفْتَ ؟»

« لَقَدْ عُثِرَ عَلى بِضْعَةِ حِجارَةٍ مُشابِهَةٍ في ذَلِكَ المَكانِ مُنْذُ مِئَةِ عامٍ ، فَحُمِلَتْ إلى مُتْحَفِ أوكْسِمِنِسْتَر ؛ فَإنْ ذَهَبْتَ إلى المُتْحَفِ فَإنَّهُمْ سيُطْلِعونَكَ عَلَيْها . وَأفْضَلُ أنْ تَأخُذَ مَعَكَ هَذا الحَجَرَ فَسَوْفَ يَسُرُّهُمُ الحُصولُ عَلَيْهِ .»

قالَ المُخْبِرُ السِّرِّيُّ : « لا أسْتَطيعُ أنْ أفْعَلَ هَذا ، وَلَكِنْ لِمَ كانَ هَذا الحَجَرُ بِمِثْلِ تِلْكَ الأهَمِّيَّةِ ؟»

أجابَ مُديرُ المَكْتَبَةِ : « لأنَّهُ كانَ مِلْكاً لِلسُّكّانِ القُدامى ، وَقَدْ كانَ مُحارِبوهُمْ يُقاتِلونَ بِهَذِهِ الحِجارَةِ فَتُصيبُ في الصَّميمِ . لَقَدْ

كانَتْ كالرَّصاصِ في خُطورَتِها . وَقَدْ قُتِلَ كَثيرٌ مِنَ الرِّجالِ في الأيّامِ الخَوالي بِإصابَتِهِمْ بِحِجارَةٍ كَهَذِهِ في رُؤوسِهِمْ عَلى تَلِّ أوْلْد كاسِل !»

لَمْ يَنْبِسِ المُخْبِرُ بِبِنْتِ شَفَةٍ وَإنَّما انْتَصَبَ واقِفاً وَأعادَ الحَجَرَ إلى جَيْبِهِ .

سَألَهُ مُديرُ المَكْتَبَةِ : « أرْجو أنْ أكونَ قَدِ اسْتَطَعْتُ مُساعَدَتَكَ ؟»

قالَ المُخْبِرُ السِّرِّيُّ : « لَقَدْ كانَ ما قُلْتَهُ لي مُثيراً لِلاهْتِمامِ ، لكِنَّكَ لِلأسَفِ لَمْ تَقْدِرْ عَلى حَلِّ رُموزِ المُشْكِلَةِ الّتي جِئْتُ بِها ؛ فَإنَّني رَجُلُ شُرْطَةٍ أبْحَثُ عَنْ قاتِلٍ ، وَواجِبي أنْ أعْثُرَ عَلَيْهِ وَلا أسْتَطيعُ الظَّنَّ بِأنَّ قاتِلَ السَّيِّدِ رُوبِنْسون قَدْ ماتَ مُنْذُ أكْثَرَ مِنْ ألْفِ سَنَةٍ مَضَتْ !»

الغُرْفَةُ رَقْمُ ٧

لَمْ أُطْلِعْ أحَداً مِنَ النّاسِ على هَذِهِ القِصَّةِ لِسَنَواتٍ طَويلَةٍ ؛ إذْ لَمْ أسْتَطِعْ حَلَّ ما فيها مِنْ طَلاسِمَ ، وَظَنَنْتُ أنَّ أحَداً لَنْ يُصَدِّقَني . أمّا الآنَ فَلا يَعْنيني كَثيراً إذا لَمْ يُصَدِّقْني أحَدٌ . إنَّ ما أرْويهِ لَهُوَ قِصَّةٌ حَقيقِيَّةٌ . وَلَعَلَّكُمْ لا تُؤْمِنونَ بِالأشْباحِ . وَأنا لَسْتُ على يَقينٍ مِنْ أنّي أومِنُ بِها ، كَذَلِكَ لَسْتُ مُتَأكِّداً مِنْ أنَّني رَأيْتُ شَبَحاً في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَإذا لَمْ أكُنْ قَدْ رَأيْتُ شَبَحاً فَلَسْتُ أدْري ما الَّذي رَأيْتُهُ .

كُنْتُ مُسافِراً في رِحْلَةِ عَمَلٍ إلى شَمالِ إنْجِلْترا ، وَكُنْتُ في طَريقِ العَوْدَةِ . وَأنا أسْكُنُ قَريباً مِنْ لَنْدَن ، وَكُنّا في فَصْلِ الشِّتاءِ وَكانَ الجَوُّ رَديئاً . وَبَدَأتُ رِحْلَةَ العَوْدَةِ في الصَّباحِ الباكِرِ ، لَكِنَّني لَمْ أسْتَطِعِ الإسْراعَ ، فَقَدْ كانَتِ الطُّرُقاتُ مُغَطّاةً بِالثَّلْجِ ؛ وَلِذا كانَ عَلَيَّ أنْ أقودَ السَّيّارَةَ على مَهَلٍ وَ بِحِرْصٍ . فَلَمّا جَنَّ اللَّيْلُ كُنْتُ لا أزالُ على مَسافَةٍ بَعيدَةٍ مِنْ بَيْتي ، وَإذا بِمَصابيحِ سَيّارَتي تَخْبو .

وَكانَ مِنَ الخُطورَةِ الشَّديدَةِ البَقاءُ عَلى الطَّريقِ الرَّئيسِيِّ ؛ فَقَدْ كانَتِ السَّيّاراتُ عَلَيْهِ كَثيرَةً ، وَلِذا تَحَوَّلْتُ إلى طَريقٍ ريفِيٍّ هادِئٍ في أوَّلِ فُرْصَةٍ لاحَتْ لي .

وَبَعْدَ بِضْعَةِ كيلومِتْراتٍ شاهَدْتُ لافِتَةً مَكْتوباً عَلَيْها « مِلْهام ». وَبَعْدَ ذَلِكَ بِخَمْسِ دَقائِقَ كُنْتُ أقودُ سَيّارَتي في شارِعٍ ضَيِّقٍ مَحْفوفٍ بِالبُيوتِ عَلى كِلا جانِبَيْهِ ، وَكانَ المَكانُ يُشْعِرُ بِالأُلْفَةِ . وَكانَ هُناكَ بِضْعَةُ حَوانيتَ قَدْ تَأَلَّقَ فيها الضِّياءُ . كَما رَأَيْتُ جَراجاً في آخِرِ الشّارِعِ ، حَيْثُ تَوَقَّفْتُ وَأَفْضَيْتُ بِمُشْكِلَتي لِعامِلِ الجَراجِ ، الَّذي أَلْقى نَظْرَةً عَلى أَضْواءِ سَيّارَتي ، ثُمَّ تَفَحَّصَ المُحَرِّكَ وَهَزَّ رَأْسَهُ قائِلاً : « إنَّ مُوَلِّدَ الكَهْرَباءِ مَكْسورٌ ، وَسَأُصْلِحُهُ لَكَ في الصَّباحِ . لَكِنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ قِيادَةَ السَّيّارَةِ اللَّيْلَةَ ؛ فَلَيْسَ هَذا بِمَأْمونِ العاقِبَةِ .»

سَأَلْتُهُ : « هَلْ يوجَدُ فُنْدُقٌ في مِلْهام ؟»

أجابَ : « أَجَلْ هُناكَ فُنْدُقُ « الجَدْي » في نِهايَةِ هَذا الشّارِعِ ، وَقَدْ مَرَرْتَ بِهِ لِتَوِّكَ . وَأَظُنُّ أَنَّكَ سَتَجِدُ سَريراً هُناكَ ، فَالزُّوّارُ في مِلْهام لا يَكْثُرونَ في فَصْلِ الشِّتاءِ . أَخْبِرِ السَّيِّدَ ريتْشارْدز أَنَّني أُصْلِحُ لَكَ مُحَرِّكَ سَيّارَتِكَ وَسَوْفَ يَبْذُلُ لَكَ أَقْصى ما في وُسْعِهِ .»

شَكَرْتُهُ ثُمَّ أَخَذْتُ حَقيبَتي مِنَ السَّيّارَةِ ، وَسِرْتُ عائِداً في الشّارِعِ

إلى فُنْدُقِ « الجَدْي » ، وَهُوَ مَبْنًى قَديمٌ . وَقَدِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ أَنَّ هُناكَ ناراً في غُرْفَةِ الطَّعامِ تَبْعَثُ البَهْجَةَ في النُّفوسِ. وَكانَ مَكْتَبُ الفُنْدُقِ يَقَعُ خَلْفَ البابِ الأَمامِيِّ ، فَضَغَطْتُ زِرَّ الجَرَسِ المَوْجودَ عَلى المَكْتَبِ ؛ فَظَهَرَ مِنْ خِلالِ بابٍ في مُؤَخِّرَةِ المَكْتَبِ رَجُلٌ ضَخْمٌ كانَتْ في إحْدى يَدَيْهِ قِطْعَةُ قُماشٍ ، وَفي الأُخْرى كَأْسٌ مِنْ عَصيرِ البُرْتُقالِ مَمْلوءَةٌ حَتّى نِصْفِها ، وَابْتَسَمَ في مَوَدَّةٍ .

سَأَلْتُهُ : « السَّيِّدُ ريتْشارْدز ؟»

وَضَعَ كَأْسَ العَصيرِ عَلى المَكْتَبِ وَأَجابَ : « نَعَمْ ، إنَّني هُوَ . هَلْ مِنْ خِدْمَةٍ أُؤَدّيها لَكَ ؟»

أَخْبَرْتُهُ أَنَّ سَيّارَتي في الجَراجِ ، وَأَنَّني أَحْتاجُ إلى وَجْبَةِ عَشاءٍ وَغُرْفَةٍ أَقْضي فيها اللَّيْلَةَ .

قالَ الرَّجُلُ : « الطَّعامُ لَيْسَ بِمُشْكِلَةٍ ، وَسَوْفَ يَكونُ العَشاءُ جاهِزاً في غُضونِ ساعَةٍ ، أَمّا الصُّعوبَةُ فَفي تَدْبيرِ الغُرْفَةِ . فَهَذا الفُنْدُقُ صَغيرٌ كَما تَرى ، وَلَيْسَ عِنْدَنا سِوى سِتِّ غُرَفٍ لِلنَّوْمِ ، وَكُلُّها مَشْغولَةٌ . وَمِنَ النّادِرِ أَنْ تَجِدَ هَذا الفُنْدُقَ مَشْغولاً كُلَّهُ في الشِّتاءِ . أَنا آسِفٌ .»

وَهَمَمْتُ بِأنْ أسْألَهُ عَنْ حَلٍّ لِهذِهِ المُشْكِلَةِ ، وَإذا بي أجِدُ البابَ قَدْ فُتِحَ ثانِيَةً ، وَوَلَجَتْ مِنْهُ سَيِّدَةٌ ضَئيلَةُ الجِسْمِ إلى الغُرْفَةِ مُسْرِعَةً .

وَقَدَّمَها إلَيَّ السَّيِّدُ رِيتْشارْدز قائِلاً : « هذِهِ زَوْجَتي .» ثُمَّ الْتَفَتَ إلَيْها وَقالَ : « كُنْتُ أقولُ لِهذا السَّيِّدِ إنَّهُ لا توجَدُ غُرْفَةٌ خالِيَةٌ اللَّيْلَةَ يا لِيز . إنَّ سَيّارَتَهُ في الجراجِ لِلإصْلاحِ ، وَهُوَ يُريدُ طَعاماً وَغُرْفَةً يَقْضي فيها لَيْلَتَهُ .»

قالَتِ السَّيِّدَةُ : « توجَدُ الغُرْفَةُ رَقْمُ ٧ ، يا تُوم .»

« لكِنَّنا لَسْنا ... » وَلَمْ يُتِمَّ كَلامَهُ ، بَلْ رَفَعَ كَأْسَ العَصيرِ وَراحَ يَحْتَسيهِ عَلى مَهَلٍ وَهُوَ يُصْغي لامْرَأتِهِ .

قالَتْ: « إنَّنا لا نَسْتَطيعُ أنْ نَرُدَّ سَيِّداً في لَيْلَةٍ كَهذِهِ . إنّي سَأُعِدُّ الفِراشَ في الغُرْفَةِ رَقْمِ ٧ .»

« إنّي جِدُّ آسِفٍ لإزْعاجِكُمْ .»

« لا إزْعاجَ يا سَيِّد ... ؟»

أجَبْتُها : « سُونْدرز . اِسْمي جُونْ سُونْدرز .»

« لا إزْعاجَ يا سَيِّدُ سُونْدرز . كُلُّ ما هُنالِكَ أنَّنا لا نَسْتَعْمِلُ

الغُرْفَةَ رَقْمَ ٧ كَثيراً . وَسَتَكونُ مُسْتَريحاً فيها ؛ إذْ لايَعيبُها شَيْءٌ .» قالَتْ ذلِكَ ، وَرَمَقَتْ زَوْجَها بِنَظْرَةٍ ؛ فَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلى كَلامِها .

قالَ : « هَلُمَّ يا سَيِّدُ سُونْدرز وَخُذْ كَأْساً مِنْ عَصيرِنا اللَّذيذِ ، الَّذي لَنْ تَجِدَ أبَداً أفْضَلَ مِنْهُ في هذِهِ المِنْطَقَةِ . اتْرُكْ حَقيبَتَكَ هُنا في المَكْتَبِ إلى أنْ تُعَدَّ لَكَ غُرْفَتُكَ .»

وَتَقَدَّمَني الرَّجُلُ إلى بَهْوِ الفُنْدُقِ ، وَهُوَ غُرْفَةٌ لَطيفَةٌ دافِئَةٌ اجْتَمَعَ فيها القَوْمُ يَشْرَبونَ الشّايَ وَيَتَجاذَبونَ أطْرافَ الحَديثِ . وَهُناكَ قابَلْتُ بَعْضَ النُّزَلاءِ وَبَعْضَ سُكّانِ مِلْهام الَّذينَ كانوا يَشْرَبونَ الشّايَ ، فَشَعَرْتُ بِالرّاحَةِ وَالسَّعادَةِ خاصَّةً عِنْدَما وَضَعَ السَّيِّدُ رِيتْشارْدز كَأْساً كَبيرَةً مِنَ العَصيرِ الشَّهيرِ أمامي . وَقَدْ كانَ صادِقاً ، إذْ كانَ شَراباً لَذيذاً إلى حَدِّ أنَّني أسِفْتُ عِنْدَما أخْبَروني أنَّ غُرْفَتي قَدْ أصْبَحَتْ جاهِزَةً .

وَاتَّصَلْتُ بِزَوْجَتي تِليفونِيًّا مِنَ الفُنْدُقِ ، وَأخْبَرْتُها بِكُلِّ ما حَدَثَ ، وَبِعُنْوانِ الفُنْدُقِ الَّذي أنْزِلُ فيهِ ، وَبِأنَّني سَأكونُ مَعَها في اليَوْمِ التّالي عَلى الغَداءِ . وَبَعْدَ ذلِكَ الْتَقَطْتُ حَقيبَتي وَيَمَّمْتُ شَطْرَ الغُرْفَةِ رَقْمِ ٧ ، وَكانَتْ بِالطّابَقِ العُلْوِيِّ فَوْقَ كُلِّ غُرَفِ النَّوْمِ الأخْرى . وَكانَتْ بارِدَةً إلى حَدٍّ ما ، إلا أنَّ السَّيِّدَةَ لِيز كانَتْ قَدْ أشْعَلَتِ المِدْفَأةَ الكَهْرُبائِيَّةَ .

قُلْتُ لِنَفْسي : « سَوْفَ تُصْبِحُ الغُرْفَةُ عمّا قَليلٍ دافِئَةً . إنَّ السُّكونَ جَميلٌ هُنا ، وَسَوْفَ أنامُ اللَّيْلَةَ نَوْمًا عَميقًا . »

لَمْ تَكُنْ غُرْفَةً كَبيرَةً ، وَكانَتْ تَتَّسِعُ لِسَريرٍ وَخِزانَةِ مَلابِسَ وَحَوْضِ اغْتِسالٍ خَلْفَ البابِ . وَبَيْنَ الحَوْضِ وَخِزانَةِ المَلابِسِ كانَ ثَمَّةَ كُرْسِيٌّ كَبيرٌ مُسْتَقيمُ الظَّهْرِ مُسْنَدٌ إلى الجِدارِ . كانَ هَذا كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّ الغُرْفَةَ كانَتْ نَظيفَةً ، وَكُنْتُ مَسْرورًا بِها . ثُمَّ فَتَحْتُ حَقيبَتي ، وَاغْتَسَلْتُ ثُمَّ هَبَطْتُ لِتَناوُلِ العَشاءِ .

وَكانَتِ السَّيِّدَةُ لِيز طاهِيَةً ماهِرَةً مِمّا جَعَلَني أَسْتَمْتِعُ بِالطَّعامِ . وَلَمّا فَرَغْتُ مِنْ طَعامي عُدْتُ إلى البَهْوِ ، وَرُحْتُ أَتَجاذَبُ أَطْرافَ الحَديثِ مَعَ السَّيِّدِ رِيتْشارْدز وَبَعْضِ أصْحابِهِ حَتّى شَعَرْتُ بِالنُّعاسِ .

قُلْتُ : « أَظُنُّ أنَّهُ مِنَ الأفْضَلِ الذَّهابُ إلى الفِراشِ الآنَ . هَلْ يُمْكِنُ أنْ أَتَناوَلَ إفْطاري مُبَكِّرًا ؟ فَإنّي أُريدُ أنْ أَبْدَأَ رِحْلَتي حالَما تَكونُ سَيّارَتي جاهِزَةً . »

« أَ تُناسِبُكَ السّاعَةُ الثّامِنَةُ ؟ »

« أَجَلْ ، شُكْرًا لَكَ . وَأَعْتَقِدُ أنَّ مُوَلِّدَ الكَهْرَباءِ لَنْ يَتِمَّ إصْلاحُهُ قَبْلَ التّاسِعَةِ . »

« طابَتْ لَيْلَتُكَ إذًا يا سَيِّدُ سونْدِرز ، وَأَرْجو لَكَ نَوْمًا هادِئًا . »

« سَوْفَ أنامُ نَوْمًا هادِئًا بِالتَّأْكيدِ . طابَتْ لَيْلَتُكَ ، وَشُكْرًا لَكَ عَلى هَذِهِ الأُمْسِيَّةِ اللَّطيفَةِ . »

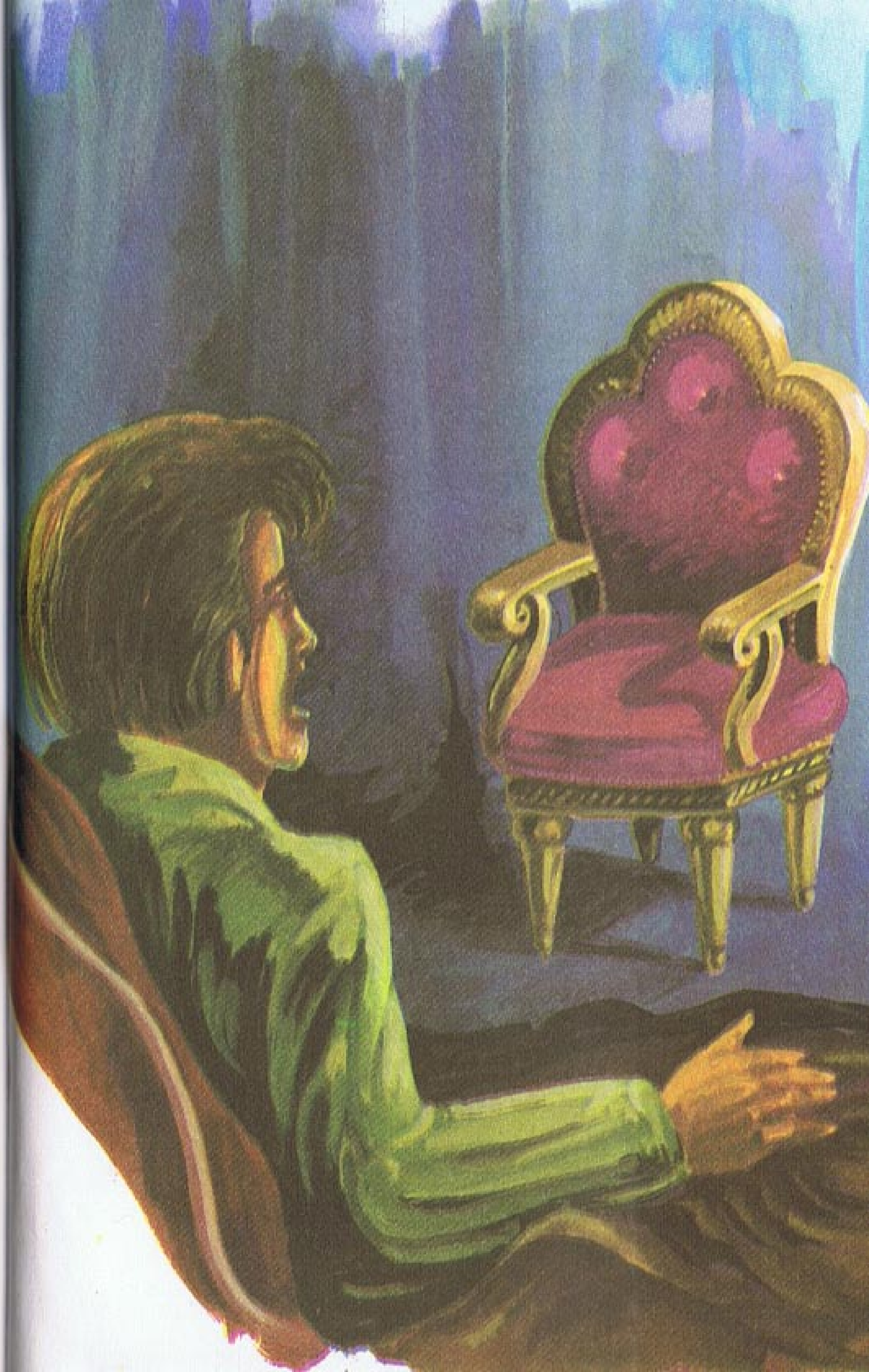
كانَتِ الغُرْفَةُ دافِئَةً فَأَطْفَأْتُ المِدْفَأَةَ ، وَتَمَدَّدْتُ في الفِراشِ وَأَنا أُحِسُّ بِالرّاحَةِ . وَشَرَعْتُ في القِراءَةِ ، إلا أنَّني وَجَدْتُ صُعوبَةً في فَتْحِ عَيْنَيَّ ، فَأَطْفَأْتُ النّورَ وَرُحْتُ في سُباتٍ عَميقٍ .

لا أَدْري كَمْ مِنَ الوَقْتِ نِمْتُ ، إلا أنَّ شَيْئًا ما أَيْقَظَني مِنْ نَوْمي . وَالَّذي أَعْرِفُهُ أنَّهُ لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ أَيَّةُ ضَجَّةٍ ، بَلْ كانَتِ الغُرْفَةُ هادِئَةً تَمامًا ، وَلَكِنَّ شَيْئًا غَريبًا كانَ يَحْدُثُ ! وَلَمْ يَكُنِ المِصْباحُ الَّذي بِجانِبِ السَّريرِ مُضاءً ، غَيْرَ أنَّ الغُرْفَةَ كانَتْ آخِذَةً في الإضاءَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، أَوْ عَلى الأقَلِّ كانَ جُزْءٌ مِنَ الغُرْفَةِ آخِذًا في الإضاءَةِ ، وَكانَ فِراشي في الجانِبِ المُظْلِمِ . كَذَلِكَ لَمْ أَسْتَطِعْ أنْ أرى خِزانَةَ المَلابِسِ أَوْ حَوْضَ الاغْتِسالِ ، إلا أنَّني كُنْتُ أَسْتَطيعُ رُؤْيَةَ الكُرْسِيِّ الكَبيرِ الَّذي بَيْنَهُما . وَكُنْتُ أَسْتَطيعُ رُؤْيَةَ مَكانِ الجُلوسِ فيهِ ، وَكَذَلِكَ ذِراعَيْهِ وَأَرْجُلِهِ وَظَهْرِهِ الطَّويلِ المُسْتَقيمِ بِمُنْتَهى الوُضوحِ ، وَكانَ يَتَأَلَّقُ أَمامي في قَلْبِ الظَّلامِ .

أطْبَقْتُ جَفْنَيَّ بِإحْكام ، ولَمْ أشْعُرْ في ذلِكَ الوَقْتِ بِأدْنى شُعورٍ بالخَوْفِ ، إلا أنَّ الخَوْفَ جاءَ بَعْدَ ذَلِكَ . لا ، لَمْ أكُنْ خائفًا ، لكِنَّني كُنْتُ أريدُ أنْ أفَكِّر ، ورَغِبْتُ في أنْ أطْفِئَ ذَلِكَ الضَّوْءَ الغَريبَ ، وأنْ أسْتَوْضِحَ الأمورَ . لا يُمكِنُ أنْ أكونَ قَدْ رَأيْتُ الكُرْسِيَّ حَقًّا ، فَقَدْ كانَتْ بَقِيَّةُ الغُرْفَةِ يَغْمُرُها الظَّلامُ ! لَقَدْ كُنْتُ أحْلُمُ ، لا شَكَّ في ذَلِكَ ! وَهذا الَّذي رَأيْتُهُ لَيْسَ سِوى حُلْم . وَمِنْ ثَمَّ قَرَّرتُ أنْ أعُدَّ بِبُطْءٍ حتّى العَدَدِ خَمْسينَ . فَلَمّا بَلَغْتُ ذَلِكَ العَدَدَ كُنْتُ أوشِكُ أنْ أفْتَحَ عَيْنَيَّ . وَشَعَرْتُ بِأنَّ الغُرْفَةَ آخِذَةٌ في الإظْلام . نَعَمْ آخِذَةٌ في الإظْلام .

« أرْبَعونَ ، واحِدٌ وَأرْبَعونَ ... » كُنْتُ في الواقِعِ أعُدُّ بِبُطْءٍ شَديدٍ عِنْدَما سَمِعْتُ جَلَبَةً : كانَ ثَمَّةَ شَخْصٌ يَتَنَفَّسُ في الغُرْفَةِ . وَرَقَدْتُ ساكِنًا ، وَرُحْتُ أنْصِتُ . أجَلْ ، رُحْتُ أنْصِتُ بِانْتِباهٍ شَديدٍ . وَكانَ التَّنَفُّسُ مُسْتَمِراً : شَهيقٌ ، زَفيرٌ ، شَهيقٌ ، زَفيرٌ ، شَهيقٌ ، زَفيرٌ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذا حُلْماً ؛ أيَكونُ لِصًّا ؟!

وَفَتَحتَ عَيْنَيَّ ، وَكُنْتُ لا أزالُ أسْتَطيعُ رُؤْيَةَ الكُرْسِيِّ ، لكِنِ الآنَ يَجْلِسُ فَوْقَهُ رَجُلٌ . وَكانَ عَجوزاً أبْيَضَ الشَّعْرِ ، وَلَكِنَّهُ كانَ يَجْلِسُ مُنْتَصِباً ، وَكانَتْ يَداهُ تُمْسِكانِ بِذِراعَيِ الكُرْسِيِّ بِشِدَّةٍ ، وَقَدْ ثَبَّتَ عَيْنَيْهِ الزَّرْقاوَيْنِ اللامِعَتَيْنِ عَلَيَّ .



وَحاوَلْتُ الكَلامَ ، فَعَجَزْتُ عَنْ أنْ أنْطِقَ بِكَلِمَةٍ ، وكُنْتُ أعْرِفُ ما أريدُ أنْ أقولَهُ : « مَنْ أنْتَ ؟ ماذا تَفْعَلُ هُنا ؟ اُخْرُجْ مِنْ غُرْفَتي .»

وَحاوَلْتُ الكَلامَ ثانِيَةً ، وَلكِنْ بِدونِ جَدْوى ؛ فَرَقَدْتُ في فِراشي أتَرَقَّبُ . وَحَثَثْتُ نَفْسي عَلى ألا أخافَ . فَقَدْ كانَ الرَّجُلُ كَبيرَ السِّنِّ بِحَيْثُ لا يَسْتَطيعُ إيذائي . وَكانَتْ حَمْلَقَتُهُ إلَيَّ هِيَ الَّتي أفْزَعَتْني ؛ فَقَدْ كانَتْ عَيْناهُ الزَّرْقاوانِ ثابِتَتَيْنِ لا تَتَحَرَّكانِ .

قُلْتُ لِنَفْسي : « لا بُدَّ أنَّهُ سَيَفْعَلُ شَيْئًا حالاً ، أوْ عَلى الأقَلِّ سَيَقُولُ شَيْئًا .»

وَبَدا وَكَأنَّهُ سَمِعَ أفْكاري ؛ فَقَدْ رَفَعَ يُسْراهُ وَأشارَ بِإصْبَعِهِ إلَيَّ . وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمَحْتُ في عَيْنَيْهِ حُزْنًا شَديدًا . وَفَجْأةً زايَلَني كُلُّ خَوْفٍ مِنْهُ ؛ فَقَدْ كانَ يُحاوِلُ أنْ يُخْبِرَني بِشَيْءٍ ، وَعِنْدَما نَطَقَ كانَ صَوْتُهُ مُجْهَدًا ، قالَ : « لَمْ أعْرِفِ الأمْرَ قَطُّ ، وَلكِنَّكَ عَرَفْتَهُ .»

وَسَقَطَتْ يَدُهُ ، وَفَجْأةً وَجَدْتُني أتَكَلَّمُ : « ما الَّذي عَرَفْتُهُ ؟ مَنْ أنْتَ ؟ وَماذا ... ؟» وَاخْتَفى الرَّجُلُ قَبْلَ أنْ أكْمِلَ سُؤالي ، وَغَمَرَ الظَّلامُ كُلَّ شَيْءٍ .

في الصَّباحِ أيْقَظَني صَوْتٌ يَقولُ : « جِئْتُكَ بِفِنْجانٍ مِنَ الشّاي

يا سَيِّدُ سُونْدِرز ، وَسَوْفَ يَكونُ إفْطارُكَ جاهِزًا خِلالَ نِصْفِ ساعَةٍ .»
وَكانَ صاحِبُ الصَّوْتِ السَّيِّدَ رِيتْشارْدز الَّذي وَضَعَ الشّايَ عَلى مائِدَةٍ بِجانِبِ الفِراشِ ، وَخَرَجَ مُسْرِعًا تارِكًا إيّايَ لأفْكاري . وَكانَ عِنْدي الكَثيرُ الَّذي أفَكِّرُ فيهِ . تُرى أ كُنْتُ قَدِ اسْتَغْرَقْتُ في النَّوْمِ حالَما تَوارى ذَلِكَ الزّائِرُ الغَريبُ ؟ أمْ تُراني كُنْتُ نائِمًا الوَقْتَ كُلَّهُ ؟ هَلْ كانَ كُلُّ مارَأيْتُهُ حُلْمًا ؟ هَلْ يَنْبَغي أنْ أذْكُرَ شَيْئًا عَنْ ذَلِكَ لِلسَّيِّدِ رِيتْشارْدز وَزَوْجَتِهِ ؟ وَقَرَّرْتُ ألا أقولَ لَهُما شَيْئًا عَنْ زائِري الغَريبِ . لَقَدْ كانا لَطيفَيْنِ مَعي ، وَعَمِلا عَلى راحَتي ، فَلَيْسَ مِنَ الإنْصافِ إذًا أنْ أزْعِجَهُما بِلُغْزٍ لَنْ يَسْتَطيعا حَلَّهُ ، وَلَنْ أسْتَطيعَ أنْ ألومَهُما عَلى ذَلِكَ .

وَعَلى هَذا تَناوَلْتُ إفْطاري ، وَنَزَلْتُ إلى مَكْتَبِ الفُنْدُقِ لِدَفْعِ الحِسابِ . وَكانَتْ زَوْجَةُ السَّيِّدِ رِيتْشارْدز تَجْلِسُ إلى المَكْتَبِ ، فَشَكَرْتُها عَلى فائِقِ عِنايَتِها بي ، فَابْتَسَمَتْ وَأعْطَتْني قائِمَةَ الحِسابِ قائِلَةً : « لَقَدْ سُرِرْنا بِوُجودِكَ مَعَنا يا سَيِّدُ سُونْدِرز . وَنَحْنُ جِدُّ حَريصَيْنِ عَلى راحَةِ نُزَلائِنا في فُنْدُقِ الجَدْيِ . هَلْ نَعِمْتَ بِنَوْمٍ هادِئٍ ؟»

كُنْتُ أعُدُّ النُّقودَ لِدَفْعِ الحِسابِ ، فَلَمّا رَفَعْتُ رَأسي لأجيبَها

لَمحتُ صورةً مُعلَّقةً على الجدارِ خلفَها . وَهالني أنَّها لِلشَّخصِ نفسِهِ الَّذي كانَ في غُرْفَتي : الشَّعْرُ الأبْيَضُ ، وَالوَجْهُ الجامِدُ ، وَالعَيْنانِ الزَّرْقاوانِ اللامِعَتانِ ؛ كُلُّها كانَتْ مَألوفَةً لي على نَحْوٍ غَريبٍ .

سَأَلْتُ السَّيِّدَةَ ليز وَأنا أشيرُ إلى الصّورَةِ : « مَنْ هَذا ؟»

أَلْقَتْ بِنَظْرَةٍ عَجْلى على الصّورَةِ ، ثُمَّ الْتَفَتَتْ نَحْوي بِسُرْعَةٍ قائِلَةً: « إنَّها صورَةُ والِدِ تُوم . لَقَدْ كانَ يَعيشُ مَعَنا هُنا في الفُنْدُقِ ، وَقَدْ ماتَ مُنْذُ خَمْسِ سَنَواتٍ . وَفي الحَقيقَةِ أنَّهُ ماتَ في الغُرْفَةِ الَّتي نِمْتَ فيها اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، وَهَذا هُوَ السَّبَبُ في أنَّ تُوم لَمْ يَكُنْ يُريدُ أنْ يُعْطِيَكَ الغُرْفَةَ رَقْمَ (٧) .»

« لَكِنَّكَ أنْتَ ... » ثُمَّ تَوَقَّفْتُ ، فَقَدْ كانَ عَلَيَّ أنْ أنْتَقِيَ أَلْفاظِي بِعِنايَةٍ ، فَلَمْ أكُنْ أعْرِفُ مَبْلَغَ عِلْمِها بِالأمْرِ ، وَلَمْ أكُنْ أعْرِفُ مَدى ما كانَتْ تُريدُ أنْ تُخْبِرَني بِهِ . وَقَبْلَ أنْ أنْطِقَ بِكَلِمَةٍ عادَتْ هِيَ إلى الكَلامِ : « ثَمَّةَ حِكاياتٌ سَخيفَةٌ عَنِ الغُرْفَةِ رَقْم (٧) يا سَيِّدُ سُونْدِرْز ؛ فَقَدْ ذَكَرَ نَزيلٌ أوْ نَزيلانِ عَصَبِيّانِ أنَّهُما لَمْ يَنْعَما بِالنَّوْمِ في تِلْكَ الغُرْفَةِ ؛ قالا إنَّهُما شَعَرا بِالخَوْفِ أثْناءَ اللَّيْلِ ، وَلَكِنَّهُما لَمْ يَسْتَطيعا مَعْرِفَةَ سَبَبِ ذَلِكَ الخَوْفِ ، وَقالا إنَّ الغُرْفَةَ

مَسْكونَةٌ . وَلَمّا كانَ وُجودُ شَبَحٍ أمْراً سَيِّئاً لِلْغايَةِ بِالنِّسْبَةِ لِفُنْدُقٍ ، فَقَدْ قَرَّرَ والِدُ تُوم أنْ يَنامَ هُوَ بِنَفْسِهِ في الغُرْفَةِ رَقْم (٧) . وَلأنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُصَدِّقُ أنَّها مَسْكونَةٌ ، فَقَدْ قالَ إنَّهُ سَيَكْشِفُ حالاً سِرَّ هَذا الفَزَعِ . وَلَسْتُ أومِنُ بِوُجودِ الأشْباحِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُوَ أيْضاً يُؤْمِنُ بِوُجودِها ؛ فَصَعِدَ إلى الغُرْفَةِ لِيَنامَ فيها في مَوْعِدِهِ المُعْتادِ ، وَكانَ في حالَتِهِ الصِّحِّيَّةِ المُعْتادَةِ، وَلَكِنْ ...»

قُلْتُ : « أجَلْ ، ما الَّذي حَدَثَ ؟ أكْمِلي حَديثَكِ .»

« لَقَدْ كُنْتُ أُحِبُّهُ كَثيراً ، وَكَمْ يُحْزِنُني أنْ أتَذَكَّرَ ما حَدَثَ ! لَقَدْ حَمَلْتُ إلَيْهِ الشّايَ في صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي ، فَوَجَدْتُهُ مَيِّتاً . إنَّهُ لَمْ يَجِدِ الوَقْتَ الكافِيَ لِيَخْلَعَ مَلابِسَهُ وَيَأْوِيَ إلى الفِراشِ . لَقَدْ كانَ جالِساً في ذَلِكَ الكُرْسِيِّ الكَبيرِ وَقَدْ فارَقَتْهُ الحَياةُ . وَكانَ بِطَبيعَةِ الحالِ رَجُلاً كَبيرَ السِّنِّ ، وَكانَ مُعَرَّضاً لِلْمَوْتِ في أيِّ وَقْتٍ ، كَما جاءَ في تَقْريرِ الطَّبيبِ أنَّهُ أُصيبَ بِنَوْبَةٍ قَلْبِيَّةٍ مُفاجِئَةٍ .»

أخَذَتِ السَّيِّدَةُ النُّقودَ وَأعْطَتْني الباقِيَ ، فَوَضَعْتُهُ في جَيْبي ثُمَّ الْتَقَطْتُ حَقيبَتي وَقُلْتُ لَها : « سَيِّدَةُ ريتْشارْدز ، أظُنُّ أنَّهُ يَنْبَغي عَلَيْكِ ...» لَكِنَّها لَمْ تَكُنْ مُنْصِتَةً إلَيَّ ، ثم ابْتَسَمَتْ لي ابْتِسامَةً عَذْبَةً ، وَقالَتْ : « وَهَكَذا ، يا سَيِّدُ سُونْدِرْز ، كَما تَرى لَمْ يُكْتَشَفْ

قَطُّ سِرُّ الغُرْفَةِ رَقْم (٧) ، وَلا أعْتَقِدُ أنَّ أيَّ إنْسانٍ سَيَسْتَطيعُ ذَلِكَ ، فَإنَّها لَيْسَتْ إلا قِصَّةً سَخيفَةً !»

وَدَّعتُها مُحَيِّياً ، وَأسْرَعْتُ إلى الشّارِعِ مُيَمِّماً شَطْرَ الجَراج . وَخُيِّلَ إلَيَّ أنَّ صَوْتَ رَجُلٍ عجوز يُلاحِقُني قائلاً : « إنَّني لَمْ أكْتَشِفْ قَطُّ السِّرَّ ، وَلَمْ أكْتَشِفْ قَطُّ ما إذا كانَتِ الغُرْفَةُ رَقْم (٧) مَسْكونَةً أمْ لا ، وَلَكِنَّكَ أنْتَ اكْتَشَفْتَ ، وَأنْتَ الآنَ تَعْرِفُ السِّرَّ ؛ أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

زِيارَةُ الطَّبيبِ الأخيرَة

ذاتَ أمْسِيَّةٍ صَيْفِيَّةٍ دافِئَةٍ مِنْ أماسِيِّ شَهْرِ يوليه (تَمُّوز) ، كانَ الهَواءُ ساكِناً ، وَالقَمَرُ مُتَألِّقاً في كَبِدِ السَّماءِ الصّافِيَةِ ، وَالصَّوْتُ الوَحيدُ الّذي كانَ الشُّرْطِيُّ مِنْفَوْرد يَسْتَطيعُ سَماعَهُ هُوَ صَوْتُ وَقْعِ أقْدامِهِ . وَكانَ شارِعُ رينَر هادِئاً ، وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ أضْواءٌ في النَّوافِذِ ؛ فَقَدْ كانَ سُكّانُ الشّارِعِ يَغِطّونَ في سُباتٍ عَميق .

وَنَظَرَ الشُّرْطِيُّ الشّابُّ إلى ساعَتِهِ ، فَوَجَدَها تُشيرُ إلى الثّانِيَةِ وَالنِّصْفِ صَباحاً . وَفَجْأةً أحَسَّ بِالسَّعادَةِ تَغْمُرُهُ ، فَلَمْ يَكُنْ قَدْ مَضى عَلَيْهِ في عَمَلِهِ كَشُرْطِيٍّ فَتْرَةٌ طَويلَةٌ ، وَكانَتْ هَذِهِ أوَّلَ نَوْبَةِ حِراسَةٍ يَقومُ بِها وَحْدَهُ ؛ فَحَتّى اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ كانَ يُزامِلُهُ في الحِراسَةِ شُرْطِيٌّ آخَرُ يَكْبُرُهُ سِنّاً . أمّا الآنَ فَقَدْ أرْسَلوهُ لِلْحِراسَةِ وَحْدَهُ ، فَشَعَرَ أخيراً بِأنَّهُ شُرْطِيٌّ حَقيقِيٌّ .

السّاعةُ الآنَ تُشيرُ إلى الثّانيةِ وَالنِّصْفِ ، وَفي الثّالثةِ عَلَيهِ أنْ يَعودَ إلى مَرْكزِ الشُّرْطَةِ لِيُقدِّمَ تقْريرَهُ ، وبَعْدَ ذَلكَ تَنْتَهي نَوْبَتُهُ ، وَيَعودُ إلى دارِهِ .

وَأخذَ يَسيرُ على مَهْلٍ وَيُراقِبُ الشّارِعَ بِاهْتِمام . وَكانَ قَدْ دُرِّبَ على اليَقَظَةِ التّامَّةِ ، وَعَلَّموهُ أنَّ على الشُّرْطِيِّ الماهِرِ أنْ يَبْقى مُتَنَبِّهاً دائِمَ المُراقَبَةِ طَوالَ الوَقْتِ . وَقَدْ أرادَ مِتفورْد أنْ يَكونَ شُرْطِيًّا ماهِراً ، فَلَمْ تُخْطِئْ عَيْناهُ شَيْئًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ . وَكانَتْ إحْدى نَوافِذِ الطّابَقِ الأرْضِيِّ في المَنْزِلِ رَقْم ٢٦ مَفْتوحَةً ، وَ تُرِكَتْ بَعْضُ أدَواتِ الحَدائِقِ أمامَ بابِ المَنْزِلِ رَقْم ٢١ .

وَقالَ مِتفورْد لِنَفْسِهِ : « سُكّانٌ مُهْمِلونَ ! يَظُنّونَ أنَّهُمْ آمِنونَ في شارِعٍ هادِئٍ كَهَذا ، وَلا يَتَصَوَّرونَ أنَّ فُرْصَةَ اللُّصوصِ سَتَكونُ أفْضَلَ فيهِ . »

ثُمَّ شاهَدَ قِطًّا ضَخْماً أسْوَدَ يَعْدو عَبْرَ الشّارِعِ وَيَثِبُ فَوْقَ سورِ حَديقَةِ المَنْزِلِ رَقْم ١٣ ، ثُمَّ يَرْبِضُ على عَتَبَةِ البابِ وَيُراقِبُهُ وَهُوَ يَسيرُ جيئَةً وَذَهاباً . وَابْتَسَمَ مِتْفورْد قائِلاً لَهُ : « لَقَدْ عُدْتَ إلى دارِكَ إذاً ، أليْسَ كَذَلِكَ ؟ وَسَوْفَ أعودُ أنا أيْضاً إلى داري . طابَ مَساؤُكَ أيُّها القِطُّ ! »

وَشَعَرَ بِالفَرَحِ يَغْمُرُهُ ؛ فَقَدْ أزِفَ وَقْتُ انْتِهاءِ نَوْبَتِهِ .

وَعِنْدَما اقْتَرَبَ مِنْ نِهايَةِ الشّارِعِ شاهَدَ سَيّارَةً كَبيرَةً بَيْضاءَ واقِفَةً أمامَ المَنْزِلِ رَقْم ٣ ، فَدَوَّنَ رَقْمَها وَهُوَ زِدْ زِدْ بي ٧٧٧ إكْس . وَكانَتْ أبْوابُ السَّيّارَةِ مُغْلَقَةً ، كَما كانَتْ تَقِفُ في المَكانِ الصَّحيحِ .

قالَ لِنَفْسِهِ : « الحَمْدُ لِلّهِ أنَّ ثَمَّةَ شَخْصاً واحِداً حَريصاً على النِّظامِ يَسْكُنُ في شارِع رينر ! » ثُمَّ وَقَفَ وَنَظَرَ إلى واجِهَةِ المَنْزِلِ رَقْم ٣ ، وَكانَ مَبْنًى كَبيراً يَسُرُّ النّاظِرَ لِمَرْآهُ ، لَكِنَّ حَديقَتَهُ كانَتْ مُهْمَلَةً ، وَكانَ البابُ في حاجَةٍ إلى طِلاءٍ .

قالَ لِنَفْسِهِ : « شَيْءٌ غَريبٌ ! لَيْسَتْ هذِهِ بِدارِ رَجُلٍ فَقيرٍ ؛ فَفي مَقْدورِ مَنْ يَسْكُنُ هُنا أنْ يَعْتَنِيَ بِحَديقَتِهِ ، وَيَدْهُنَ البابَ الأمامِيَّ لِلْبَيْتِ . »

وَمَضى مِتْفورْد في سَيْرِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدِ ابْتَعَدَ سِوى عِدَّةِ أمْتارٍ عَنِ المَنْزِلِ رَقْم ٣ عِنْدَما سَمِعَ صَوْتاً آتِياً مِنْ خَلْفِهِ . وَالْتَفَتَ فَرَأى البابَ الأمامِيَّ قَدِ انْفَتَحَ ، وَخَرَجَ مِنْهُ رَجُلٌ راحَ يَعْدو في مَمَرِّ الحَديقَةِ ناحِيَةَ السَّيّارَةِ . وَكانَ طَويلَ القامَةِ ، يَرْتَدي حُلَّةً داكِنَةً ، وَيَحْمِلُ بِيَدِهِ اليُسْرى حَقيبَةً . وَكانَ يَبْدو عَلَيْهِ الشُّحوبُ وَالمَرَضُ . وَكانَتْ

عَيْناهُ واسِعَتَيْن ، وَكانَتا تُحَمْلِقانِ في فَزَع .

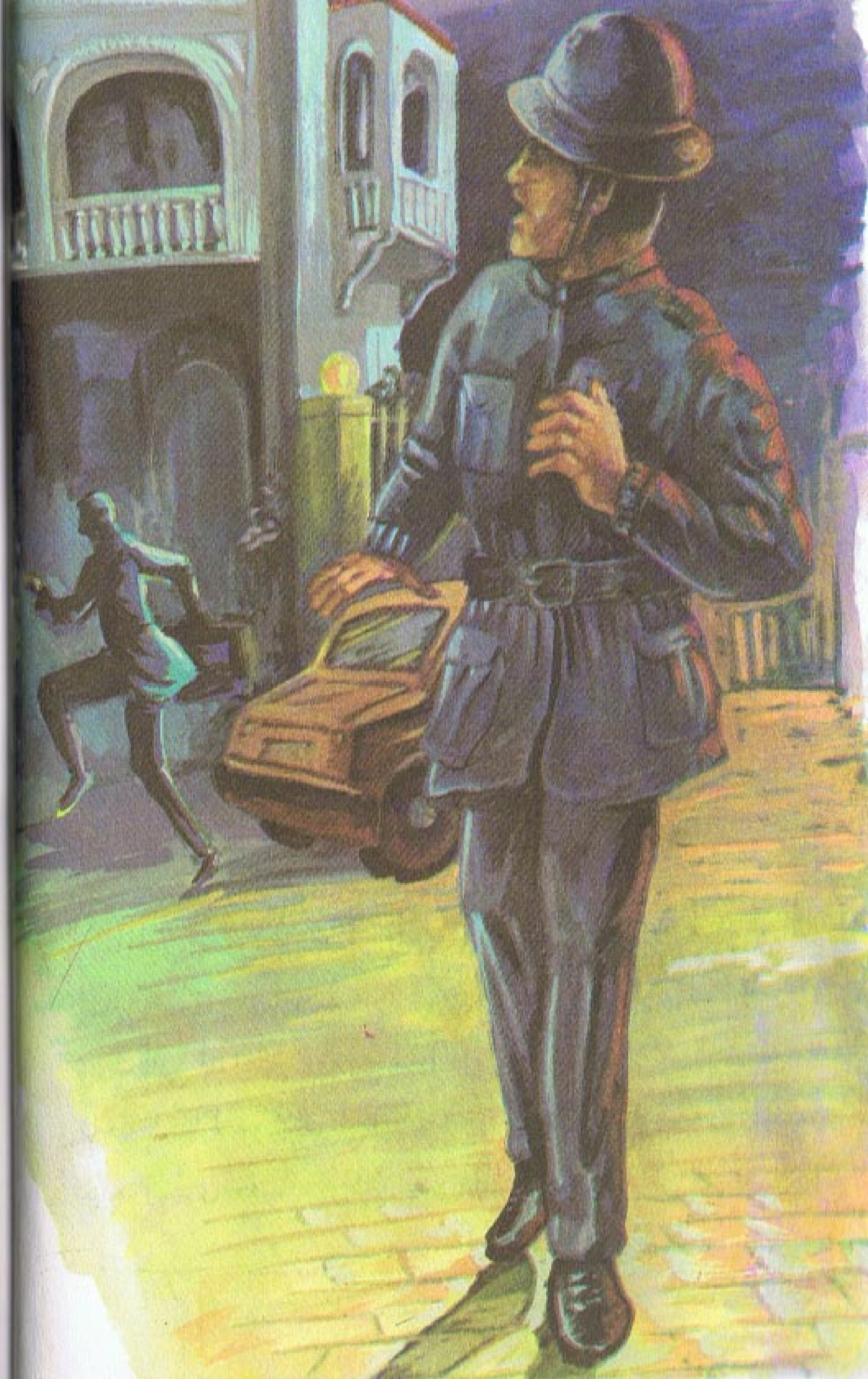
وَوَقَفَ الرَّجُلُ لِلَحْظَةٍ ساكِنًا بِجانِبِ السَّيّارَةِ الكَبيرَة ، ثُمَّ اسْتَدارَ وَعَدا مُبْتَعِدًا ؛ فَجَرى الشُّرْطِيُّ وراءَهُ وَهُوَ يَصيحُ : « قِفْ ! قِفْ ! مَنْ أَنْتَ ؟ هَلْ تُقيمُ هُنا ؟»

وَلَمْ يُجِبْهُ الرَّجُلُ ، فَجَدَّ مِتْفورْد في عَدْوِهِ ، وَهُوَ موقِنٌ أَنَّهُ يَسْتَطيعُ اللَّحاقَ بِهِ .

وَلَكِنْ .. عِنْدَ مُنْعَطَفِ الشّارِعِ اخْتَفى الرَّجُلُ ، وَ بَعْدَ دَقيقَةٍ ظَهَرَ ثانِيَةً عَلى بُعْدِ أَمْتارٍ مِنَ الشُّرْطِيِّ الشّابّ ، ثُمَّ اخْتَفى في الدَّقيقَةِ التّالِيَةِ . وَكانَ القَمَرُ يَغْمُرُ بِضِيائِهِ الشّارِعَ كُلَّهُ ، فَبَدا خالِيًا مِنَ المارَّةِ .

وَعادَ مِتْفورْد إلى المَنْزِلِ رَقْم ٣ فَوَجَدَ السَّيّارَةَ لا تَزالُ في مَكانِها ، وَالحَديقَةَ قَدِ انْتَشَرَتْ فيها الظِّلالُ ، وَالبابَ الأَمامِيَّ مَفْتوحًا .

وَكانَ يَعْرِفُ ما يَجِبُ عَلَيْهِ عَمَلُهُ : كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُفَتِّشَ المَنْزِلَ ؛ فَلَعَلَّ شَيْئًا غَيْرَ عادِيٍّ قَدْ حَدَثَ في المَنْزِلِ رَقْم ٣ . وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ فَجْأَةً بِالخَوْفِ ، فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ خِلالِ ذَلِكَ البابِ المَفْتوح ، وَأَخَذَ نَفَسًا عَميقًا ، وَسارَ في مَمَرِّ الحَديقَةِ . وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَفَرٌّ مِنْ



أنْ يَقومَ بِواجِبِهِ .

كانَ البابُ الأماميُّ يُفْضي إلى بَهْوٍ كَبيرٍ ، فَأضاءَ مِصْباحَهُ القَوِيَّ في أرْجائِهِ . وَرَأى على ضَوْءِ المِصْباحِ كَراسِيَّ وَمائِدَةً يَعْلوها التُّرابُ . ثُمَّ حاوَلَ أنْ يُشْعِلَ المِصْباحَ الكَهْرَبائِيَّ ، لكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ تَيّاراً، فَقَدْ كانَ مَقْطوعاً .

قالَ لِنَفْسِهِ : « لا أحَدَ يَعيشُ هُنا . وَمِنَ الواضِحِ أنَّ أحَداً لَمْ يَسْكُنْ هَذِهِ الدّارَ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ .»

ثُمَّ سَمِعَ ضَجيجاً ؛ كانَتْ ثَمَّةَ امْرَأةٌ تَبْكي في مَكانٍ ما بِالمَنْزِلِ ، فَأمْسَكَ أنْفاسَهُ وَأصْغى . وَكانَ الضَّجيجُ يَعْلو وَيَخْفُتُ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّفْ . وَكانَ مَصْدَرُهُ إحْدى الغُرَفِ العُلْوِيَّةِ .

وَأدارَ ضَوْءَ مِصْباحِهِ في أرْجاءِ البَهْوِ مَرَّةً أخْرى ، فَرَأى في نِهايَةِ البَهْوِ سُلَّماً ، فَيَمَّمَ شَطْرَهُ بِبُطْءٍ ، وَأخَذَ يَصْعَدُهُ . وَكانَ السُّلَّمُ مَليئاً بِالتُّرابِ ، حَتّى إنَّ قَدَمَيْهِ كانَتا تَتْرُكانِ آثاراً واضِحَةً فيهِ . ثُمَّ الْتَفَتَ وَراءَهُ نَحْوَ البَهْوِ ، وَسَلَّطَ ضَوْءَ مِصْباحِهِ على أرْضِيَّتِهِ ، فَرَأى آثارَ قَدَمَيْهِ هُوَ ، وَكانَتْ هِيَ الآثارَ الوَحيدَةَ عَلى الأرْضِيَّةِ المُتْرِبَةِ .

وَخَفَقَ قَلْبُ مِتْفورْد وَهُوَ يَقولُ لِنَفْسِهِ : « ذَلِكَ الرَّجُلُ ! ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذي خَرَجَ يَعْدو مِنْ هَذِهِ الدّارِ مُنْذُ بِضْعِ دَقائِقَ ، لِماذا لَمْ

تَتْرُكْ قَدَماهُ آثاراً عَلى أرْضِ البَهْوِ ؟! وَلِماذا لا أرى إلا آثارَ قَدَمَيَّ أنا ؟!»

وَاسْتَدارَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، وَلكِنَّهُ قالَ لِنَفْسِهِ : « عَلى أيَّةِ حالٍ ، في مَقْدوري مُراقَبَةُ هَذا المَنْزِلِ مِنَ الخارِجِ ، وَبِإمْكاني اسْتِعْمالُ جِهازِ اللاسِلْكِيِّ وَمُخاطَبَةُ مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ ، وَطَلَبُ النَّجْدَةِ مِنَ الضّابِطِ المَنوبِ . وَأسْتَطيعُ مُراقَبَةَ المَنْزِلِ مِنَ الشّارِعِ حَتّى تَأتِيَني النَّجْدَةُ . إنَّ الجاويشَ تُوماس سَيُدْرِكُ أنَّني في حاجَةٍ إلى العَوْنِ ، وَسَأوافيهِ بِتَقْريرٍ مُفَصَّلٍ بِما رَأيْتُهُ ، وَسَأخْبِرُهُ عَنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الغَريبِ الَّذي فَرَّ هارِباً ، وَسَأُنَبِّئُهُ بِأنَّ البابَ الأماميَّ لِلْمَنْزِلِ رَقْم ٣ كانَ مَفْتوحاً ، وَسَأُبْلِغُهُ بِاعْتِقادي في أنَّ ثَمَّةَ شَخْصاً آخَرَ لا يَزالُ في داخِلِ المَنْزِلِ ، وَسَوْفَ ... »

وَفَجْأةً كَفَّتِ المَرْأةُ عَنِ البُكاءِ ، ثُمَّ سَمِعَ صَرْخَةً مُرَوِّعَةً آتِيَةً مِنْ غُرْفَةِ النَّوْمِ الَّتي بِأعْلى السُّلَّمِ .

« لا ! لا ! أرْجوكَ لا تَفْعَلْ ! أرْجوكَ يا جوناثان لا تَفْعَلْ ! أرْجوكَ ! أرْجوكَ !» ثُمَّ تَلاشى الصُّراخُ في صَيْحَةٍ واحِدَةٍ مُرْعِبَةٍ : « آآآه !»

لَقَدْ تَلَقّى مِتْفورْد تَدْريباً مُمْتازاً ، وَكانَ الجاويشُ تُوماس نِعْمَ المُعَلِّمُ لَهُ؛ فَقَدْ عَلَّمَهُ أنَّ رَجُلَ الشُّرْطَةِ يَجِبُ أنْ يُواجِهَ الخَطَرَ . وَكانَ



متفورد يعرفُ واجبَهُ جيِّداً . لَقَدْ كانَتْ تِلْكَ الصَّرْخَةُ المُرْعِبَةُ صرخة استِغاثَةٍ .

وَصَعِدَ السُّلَّمَ جَرْيًا . وَلَمّا كانَ بابُ غُرْفَةِ النَّوْمِ موصدًا بِقُفْلٍ ؛ فَقَدْ راحَ يَرْكُلُ القُفْلَ مَرَّةً .. وَاثْنَتَيْنِ .. وَثَلاثًا ، وَما لَبِثَ البابُ أنِ انْفَتَحَ . وَانْدَفَعَ إلى داخِلِ الغُرْفَةِ ، وَأَجالَ ضَوْءَ الكَشّافِ في كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِها ، فَشاهَدَ مَقْعَدًا خالِيًا ، وَتَسْرِيحَةً ، وَمائِدَةً مَقْلوبَةً ، وَسَريرًا عَلَيْهِ كَوْمَةٌ مِنْ أَغْطِيَةِ الفِراشِ . وَسارَ مِتْفورْدُ نَحْوَ السَّريرِ بِبُطْءٍ ؛ خَشْيَةَ أنْ يَكونَ ثَمَّةَ أَحَدٌ مُخْتَبِئًا تَحْتَ تِلْكَ الكَوْمَةِ الكَبيرَةِ مِنَ الأَغْطِيَةِ .

نَقَلَ المِصْباحَ مِنْ يُمْناهُ إلى يُسْراهُ ، وَحَرَصَ على أنْ يَكونَ الضَّوْءُ مُسَلَّطًا على السَّريرِ ، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ وَجَذَبَ الأَغْطِيَةَ مِنْ فَوْقِ السَّريرِ .

وَعِنْدَئِذٍ رَأى وَجْهَ امْرَأَةٍ مَقْتولَةٍ تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ وَلِسانُها مُتَدَلٍّ مِنْ فَمِها الفاغِرِ . وَكانَتْ عَيْناها تَلْمَعانِ في ضَوْءِ المِصْباحِ ، وَرائِحَةٌ فَظيعَةٌ تَنْبَعِثُ مِنْ بَشَرَتِها الصَّفْراءِ .

صاحَ الشُّرْطِيُّ : « يا إلَهي ! جَريمَةُ قَتْلٍ في أَوَّلِ نَوْبَةِ حِراسَةٍ لي ، وَتَرَكْتُ القاتِلَ يَفِرُّ ! »

وَغَطّى ذَلِكَ الوَجْهَ البَشِعَ المَيِّتَ بِأَغْطِيَةِ الفِراشِ ، وَأَوْصَدَ بابَ

غُرْفَةِ النَّوْم خَلْفَهُ . وَخَرَجَ مِنَ المَنْزِلِ رَقْم ٣ واسْتَدْعى الضّابِطَ المنوب مِنْ خِلالِ جِهازِ اللاسِلْكِيِّ وَقالَ لَهُ : « أنا الشُّرْطِيُّ مِتْفورْد أيُّها الجاويشُ . إنَّني أتكَلَّمُ مِنْ خارِجِ المَنْزِل رَقْم ٣ بِشارِع رينَر . إنَّها جَريمَةُ قَتْل . وأنا مُتأكِّدٌ مِنْ أنَّها جريمَةُ قَتْلٍ . لَقَدْ رَأيْتُ القاتِلَ بِعَيْنَيَّ وَتَرَكْتُهُ يَهْرُبُ . إنَّ طولَهُ حَوالى مِئَةٍ وَثَمانين سَنْتيمِتراً ، وَفي السِّتّينَ مِنْ عُمْرِهِ تَقْريباً ، وَيَلْبَسُ حُلَّةً داكِنَةً ، وَمَعَهُ حَقيبَةٌ صَغيرَةٌ. أمّا القَتيلَةُ فامْرَأةٌ في حَوالى ... »

قاطَعَهُ صَوْتُ الجاويش تُوماس قائِلاً : « عُدْ في الحالِ إلى مَرْكَز الشُّرْطَةِ يا مِتْفورْد . إنَّ نَوْبَةَ حِراسَتِكَ تَنْتَهي في الثّالِثَةِ صَباحاً ، وَالسّاعَةُ الآنَ تَقْتَرِبُ مِنَ الثّالِثَةِ .»

« وَلكِنْ أيُّها الجاويشُ ، إنَّ هُناكَ امْرَأةً مَقْتولَةً في هذا المَنْزِلِ ، وَالقاتِلُ قَدْ هَرَبَ وَإنّي لَمُحْتاجٌ ... »

« لا تُقاطِعْ يا مِتْفورْد ! عَلَيْكَ أنْ تُطيعَ الأوامِرَ فَحَسْبُ ، وَتأكَّدْ مِنْ أنَّ بابَ المَنْزِلِ رَقْم ٣ موصَدٌ بِإحكام ، ثُمَّ عُدْ إلى هُنا حالاً . لَقَدْ وَصَلَتْ رِسالَتُكَ وَعُلِمَ ما فيها .»

ثُمَّ سَكَتَ جِهازُ اللاسِلْكِيِّ بِمُجَرَّدِ أنْ أنْهى الجاويشُ تُوماس كَلامَهُ . وَأغْلَقَ مِتْفورْد بابَ المَنْزِلِ رَقْم ٣ ، وَتأكَّدَ مِنْ إغْلاقِهِ ، ثُمَّ

انْصَرَفَ عائِداً – عَلى مَهْلٍ – إلى قِسْمِ الشُّرْطَةِ ، وَهُوَ مُتَوَتِّرٌ تَماماً .

قالَ الجاويشُ تُوماس وَهُوَ يَدْفَعُ بِفِنْجانٍ وَطَبَقٍ فَوْقَ المَكْتَبِ الَّذي يَجْلِسُ إلَيْهِ : « اجْلِسْ يا مِتْفورْد ، وَاحْتَسِ فِنْجانَ الشّاي هَذا . وَالآنَ يُمْكِنُكَ أنْ تُخْبِرَني بِما حَدَثَ . وَاحْكِ عَلى مَهْلٍ ، فَلَنْ أقاطِعَكَ.»

وَظَلَّ يُنْصِتُ صامِتاً حَتّى فَرَغَ الشُّرْطِيُّ مِتْفورْد مِنْ رِوايَةِ قِصَّتِهِ ، ثُمَّ قالَ : «حَسَنٌ ، وَالآنَ أجِبْ عَنْ بَعْضِ الأسْئِلَةِ . أوَّلاً : ما تاريخُ اليَوْمِ ؟»

« إنَّهُ الثّالِثَ عَشَرَ مِنْ يوليه (تَمّوز) أيُّها الجاويشُ ، وَلكِنْ لِماذا... ؟»

« أجِبْ فَقَطْ عَنْ أسْئِلَتي يا مِتْفورْد ، فَثَمَّةَ أشْياءُ كَثيرَةٌ تَتَّصِلُ بِهذِهِ اللَّيْلَةِ أنْتَ لاتَعْرِفُها ، كَما أنَّ ثَمَّةَ أشْياءَ كَثيرَةً لا أفْهَمُها أنا أيْضاً ، بَيْدَ أنّي أعْرِفُ عَنْها أكْثَرَ مِمّا تَعْرِفُ أنْتَ .»

« وَلكِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ – أيُّها الجاويشُ – الَّذي رَأيْتُهُ يَجْري في شارِع رينَر ، يَجِبُ عَلَيْنا أنْ نُرْسِلَ بِعَدَدٍ مِنْ سَيّاراتِ الشُّرْطَةِ لِلْبَحْثِ عَنْهُ .»

« لَنْ يَعْثُروا عَلَيْهِ يا مِتْفورْد ، لَنْ يَعْثُرَ عَلَيْهِ أحَدٌ !»

« وَلكِنْ أَيُّها الجاويشُ ... »

« صَهٍ ، فَمـا هَذِهِ بِالقِصَّةِ الَّتي يَسْهُلُ سَرْدُها . وَلَسَوْفَ تَزْدادُ صُعوبَةً إِذا قاطَعْتَني .»

« آسِفٌ أَيُّها الجاويشُ !»

« الآنَ فَكِّرْ جَيِّداً . أَيْنَ كانَ الرَّجُلُ حينَ سَمِعْتَ صُراخَ المَرْأَةِ ؟»

« كـانَ .. كـانَ في مَكانٍ مـا بِالشّارِعِ . نَعَمْ ، في مَكانٍ مـا بِالشّارِعِ ، فَذَلِكَ هُوَ المَكانُ الَّذي رَأَيْتُهُ فيه آخِرَ مَرَّةٍ . إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ في المَنْزِلِ .»

« وَالمَرْأَةُ الَّتي تَظُنُّ أَنَّكَ رَأَيْتَها يا مِتْفورْد ، كَيْفَ ... ؟»

« أَ تَقولُ تَظُنُّ يا سِيادَةَ الجاويش ؟! إِنَّني لا أَظُنُّ أَنَّني رَأَيْتُها . لَقَدْ رَأَيْتُها رَأْيَ العَيْنِ .»

« حَسَنٌ يا مِتْفـورْد . لا داعِيَ لِلانْفِعـالِ . تَقولُ إِنَّهـا كـانَتْ مَيْتَةً ؟»

رَدَّ مِتْفورْد بِهُدوءٍ تامٍّ : « كانَتْ مَيْتَةً ؛ وَكانَتْ تَبْدو .. وَكانَتْ تَبْدو .. لَقَدْ كُنْتُ خائِفاً مِنْها أَيُّها الجاويشُ ... لَقَدْ كانَ لِسانُها ...

وَتِلْكَ الرّائِحَةُ الفَظيعَةُ ... »

« نَعَمْ ، نَعَمْ ، أَعْرِفُ ذَلِكَ . فَقَدْ وَصَفْتَها لِلتَّوِّ . وَمَتى قُتِلَتْ في تَقْديرِكَ ؟»

وَلَمْ يُحِرِ الشُّرْطِيُّ مِتْفورْد جَواباً ، وَإِنَّما غَطّى وَجْهَهُ بِكِلْتا يَدَيْهِ .

« هَيّا يا مِتْفورْد . لا بُدَّ أَنَّ لَدَيْكَ فِكْرَةً . هَلْ كانَتْ قَدْ ماتَتْ لِتَوِّها عِنْدَما رَأَيْتَها ؟ هَلْ كانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، الَّذي رَأَيْتَهُ يَجْري في الشّارِعِ ، قَدْ قَتَلَها لِتَوِّهِ ؟»

وَاعْتَدَلَ مِتْفورْد في كُرْسِيِّهِ قائِلاً : « لا ، أَيُّها الجاويشُ ، لَمْ تَكُنْ قَدْ ماتَتْ لِتَوِّها ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ قَدْ قَتَلَها قَبْلَ أَنْ أَراهُ .»

« كَيْفَ عَرَفْتَ هَذا ؟»

« لأَنَّهُ .. لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في الدّارِ عِنْدَما سَمِعْتُها تَبْكي وَتَصْرُخُ ، وَلأَنَّها .. رَبّاهُ ! وَلأَنَّها كانَتْ مَيْتَةً مُنْذُ سَنواتٍ ! فَذَلِكَ الشَّيْءُ الَّذي رَأَيْتُهُ كانَ ... »

« هَوِّنْ عَلَيْكَ يا مِتْفورْد ! اِهْدَأْ ! لَقَدْ كانَتْ لَيْلَةً لا تُحْسَدُ عَلَيْها ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَسْمَعَ البَقِيَّةَ . إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذي ظَنَنْتَ أَنَّكَ رَأَيْتَهُ يَجْري في شارِعِ رينَر ، قَدْ ماتَ هُوَ أَيْضاً مِنْ سَنواتٍ . لا

تُقاطِعْني ! إنَّني لا أسْتَطيعُ تَفْسيرَ أيِّ شَيءٍ ، وَلكِنْ أُعْطيكَ الحَقائِقَ فَقَطْ . فَأنْتَ لَسْتَ أوَّلَ شُرْطِيٍّ يُبْلِغُ عَنْ هَذِهِ القِصَّةِ . لَقَدْ حَدَثَ كُلُّ هَذا مِنْ قَبْلُ ، في ذَلِكَ التّاريخِ بِعَيْنِهِ . أ يُريحُكَ هَذا ؟»

وَهَزَّ رَأْسَهُ قائِلاً : « عَلى الأَقَلِّ تَأكَّدْتُ الآنَ أنَّني لَمْ أُجَنَّ أيُّها الجاوِيشُ ! فَإذا كانَ رِجالُ شُرْطَةٍ آخَرونَ قَدْ شاهَدوا الشَّيْءَ نَفْسَهُ ...»

« لَقَدْ شاهَدَ هَذا غَيْرُكَ مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ . وَالآنَ أصْغِ إلَيَّ . لَقَدْ كانَ يَعيشُ في المَنْزِلِ رَقْم ١٣ بِشارِعِ رينَر طَبيبٌ وَ زَوْجَتُهُ ، وَكانَ اسْمُهُ الدُّكْتور جوناثان تنيسون . وَكانَ طَبيباً مُمْتازاً ، وَقَدْ أحَبَّهُ النّاسُ جَميعاً . وَلكِنَّ زَوْجَتَهُ كانَتِ امْرَأةً لا تُطاقُ ؛ إذْ كانَتْ تُسْرِفُ في الشَّرابِ ، وَكانَتْ دائِمَةَ الشِّجارِ مَعَهُ كُلَّما سَكِرَتْ . وَذاتَ يَوْمٍ حاوَلَتْ إشْعالَ النّارِ في البَيْتِ ، ثُمَّ ذاتَ صَباحٍ باكِرٍ ، عادَ الطَّبيبُ إلى مَنْزِلِهِ مِنْ زِيارَتِهِ لِأحَدِ المَرْضى ، وَكانَتْ زَوْجَتُهُ ثَمِلَةً ، وَكانَتْ تَبْكي وَتَصيحُ وَتَصْرُخُ . أمّا هُوَ فَكانَ مُرْهَقاً مَشْدودَ الأعْصابِ ، فَتَمَلَّكَهُ الغَضَبُ وَالعُنْفُ . وَلَمْ تَكُنْ طَبيعَتُهُ العُنْفَ يا مِتْفورْد ، لَكِنَّ الغَضَبَ هَذِهِ المَرَّةَ جَعَلَهُ عَنيفاً جِدّاً ، فَخَنَقَها بِكِلْتا يَدَيْهِ وَهِيَ راقِدَةٌ في سَريرِها تَصْرُخُ ، ثُمَّ فَرَّ هارِباً مِنَ المَنْزِلِ !»

وَبَقِيَ الشُّرْطِيّانِ صامِتَيْنِ فَتْرَةً مِنَ الوَقْتِ .

وَقَطَعَ مِتْفورْد حَبْلَ الصَّمْتِ بِأنْ سَألَ بِهُدوءٍ : « وَما الَّذي حَدَثَ لَهُ أيُّها الجاوِيشُ ؟»

« راحَ يَعْدو في حالَةِ هِياجٍ حَتّى وَصَلَ إلى طَريقِ لَنْدَن ، فَحاوَلَ العُبورَ وَهُوَ يَعْدو غَيْرَ عابِئٍ بِالسَّيّاراتِ المُتَدَفِّقَةِ ، فَصَدَمَتْهُ سَيّارَةُ نَقْلٍ ثَقيلَةٌ وَقَتَلَتْهُ .»

وَصَمَتَ مِتْفورْد ثانِيَةً ، ثُمَّ قالَ أخيراً : « مَتى حَدَثَ هَذا أيُّها الجاوِيشُ ؟»

« مُنْذُ عَشْرِ سَنَواتٍ ، وَعَلى وَجْهِ التَّحْديدِ في الصَّباحِ الباكِرِ مِنَ اليَوْمِ الثّالِثَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ يولْيَه .»

« ماذا عَنِ السَّيّارَةِ البَيْضاءِ الكَبيرَةِ ؟ ما عَلاقَتُها بِالقِصَّةِ ؟»

« لا عَلاقَةَ لَها بِالقِصَّةِ . إنَّها مَمْلوكَةٌ لِرَجُلٍ يَسْكُنُ في المَنْزِلِ رَقْم ٢٢ ، وَقَدِ اعْتادَ أنْ يَتْرُكَها أمامَ المَنْزِلِ رَقْم ٣ ، فَالشّارِعُ هُناكَ أوْسَعُ . وَلَمْ يَسْكُنْ في المَنْزِلِ رَقْم ٣ أحَدٌ مُنْذُ أنْ ماتَ الطَّبيبُ وَزَوْجَتُهُ .»

وَعادَ الجاوِيشُ توماس إلى صَمْتِهِ ، ثُمَّ قالَ : « يَحْسُنُ أنْ تَكْتُبَ

تَقْريرَكَ في دَفْتَرِ النَّوْباتِ يا مِتفورْد ، ثُمَّ تعودَ إلى دارِك ، فَإنَّكَ تَبْدو مُتْعَباً .»

وَالْتَقَطَ مِتفورْد القَلَمَ سائِلاً : « هَلْ أُحَرِّرُ تَقْريراً عَمّا رَأَيْتُهُ في المَنزِلِ رَقْم ٣ أَيُّها الجاويشُ ؟»

أجابَ الجاويشُ توماس : « لا ، فَمِنَ الأفْضَلِ ألا تَفْعَلَ .»

عَوْدَةُ السَّيِّدَةِ وُود

كانَ مِنْ عادَتي قَضاءُ إجازاتي في پُورْتشيستر ، وَهِيَ مَدينَةٌ صَغيرَةٌ هادِئَةٌ تَزْخَرُ بِالمَباني القَديمَةِ الَّتي تَسْتَحْوِذُ عَلى الاهْتِمام . وَلَمْ يَكُنْ يَزورُها سِوى القَليل ، لِذا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ الزِّحامَ . وَكُنْتُ أَسْتَمْتِعُ بِجَوِّها الهادِئ ، فَأنا أَعْمَلُ في إحْدى المُدُنِ الكُبْرى ، وَلِهذا فَإنَّ عُطْلَةً في پُورْتشيستر هِيَ تَغْييرٌ كامِلٌ في حَياتي العادِيَّةِ . وَبِالإضافَةِ إلى ذَلِكَ فَإنَّني كُنْتُ أَدْرُسُ تاريخَ تِلْكَ البُقْعَةِ ، وَكُنْتُ أُريدُ أَنْ أَقِفَ عَلى سيرَةِ حَياتِها الماضِيَةِ ، وَقِصَّةِ سُكّانِها وَمَبانيها . وَكُنْتُ أُدَوِّنُ المُلاحَظاتِ عَنْ كُلِّ هذِهِ الأشْياءِ إبّانَ عُطْلاتي . وَهكَذا عَرَفْتُ بَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ عَنْ پُورْتشيستر أَكْثَرَ مِمّا يَعْرِفُهُ سُكّانُها عَنْها .

إنَّني لَسْتُ ثَرِيًّا ، وَلَيْسَ في مَقْدوري الإقامَةُ في الفَنادِقِ . وَعِنْدَما عَلِمَ جاك طومْسون أنَّني أُريدُ قَضاءَ عُطْلاتي في پُورْتشيستر دَعاني

لِلإقامَةِ عِنْدَهُ . وَقَدْ خَدَمْتُ أنا وَهُوَ في الجَيْش مَعاً إبّانَ الحَرْبِ ، وَكُنّا صَديقَيْن حَميمَيْن . وَهكَذا أقَمْتُ عِنْدَهُ هُوَ وَزَوْجَتِهِ آني في مَنْزِلِهِما الصَّغيرِ الجَميلِ الكائِنِ في شارِعِ فُور . وَبِالطَّبْعِ دَفَعْتُ لَهُما بَعْضَ النُّقودِ ، فَأنا لَسْتُ مِنْ ذَلِكَ الصِّنْفِ مِنَ الرِّجالِ الَّذي يَتْرُكُ أصْدِقاءَهُ يُنْفِقونَ عَلَيْهِ . وَمَعَ ذَلِكَ كانا يَقولانِ لي دائِماً بِأنَّهُما يَتَطَلَّعانِ لِزِيارَتي القادِمَةِ . وَدَأبا عَلى أنْ يُشْعِراني بِأنَّ عُطْلاتي إنَّما هِيَ عُطْلاتٌ لَهُما . وَأنا عَلى يَقين أنَّهُما يَعْنِيانِ ما يَقولانِ . وَلَقَدْ قَضَيْنا مَعاً أسْعَدَ الأوْقاتِ إلى أنْ .. إلى أنْ عادَتِ السَّيِّدَةُ وُود إلى بَيْتِها !

وَفي ذَلِكَ العام ذَهَبْتُ إلى هُناكَ لِقَضاءِ أحَدِ الأعْيادِ ، وَكانَ وُصولي عَصْرًا ، وَكانَ الجَوُّ حينَذاكَ رَبيعِيًّا لَطيفاً . وَكانَ بِالجَوِّ بَعْضُ السُّحُبِ البَيْضاءِ الصَّغيرَةِ ، وَكانَتِ السَّماءُ زَرْقاءَ ، وَسَطَعَتِ الشَّمْسُ الدّافِئَةُ ساعَةً أوْ ساعَتَيْن . وَخَرَجْنا نَتَنَزَّهُ ، وَالْتَقَطْتُ بَعْضَ الصُّوَرِ لِمَباني المَدينَةِ .

قالَتْ آني : « لا بُدَّ أنَّ لَدَيْكَ مِئاتِ الصُّوَرِ لِپُورْتشيسْتر .»

قُلْتُ : « إنَّ لَدَيَّ مِنْها الكَثيرَ ؛ بَيْدَ أنّي أحْتاجُها ؛ إذ يَنْبَغي عَلى دارِسِ التّاريخِ أنْ يَسْتَخْدِمَ عَيْنَيْهِ . وَعِنْدَما أكونُ بَعيداً عَنْ

پُورْتشيسْتر فَإنَّني أتأمَّلُ هذِهِ الصُّوَرَ ؛ فَهِيَ تُساعِدُني عَلى فَهْمِ الماضي .»

وَتَناوَلْنا الشّايَ في مَقْهًى صَغيرٍ لَطيفٍ اسْمُهُ « الوَرْدَةُ وَالتّاجُ » وَعُدْنا بَعْدَ ذَلِكَ سَيْرًا عَلى أقْدامِنا إلى شارِعِ فُور ، وَبَعْدَ العَشاءِ جَلَسْنا نَتَسامَرُ بِجانِبِ المِدْفَأةِ .

قُلْتُ : « أخْبِراني بِكُلِّ ماعِنْدَكُما مِنْ أنْباءٍ ، فَإنَّني لَمْ آتِ إلى پُورْتشيسْتر مُنْذُ الصَّيْفِ الماضي وَأُريدُ أنْ أعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ .»

ابْتَسَمَ جاك قائِلاً : « ألا تَعْتَقِدُ ، يا بِل ، أنَّ پُورْتشيسْتر قَدْ طَرَأَ عَلَيْها تَغْييرٌ ؟ إنَّكَ لَتَعْرِفُها أكْثَرَ مِنّا ، وَمَعَ ذَلِكَ فالحَياةُ هُنا تَسيرُ بِبُطْءٍ شَديدٍ . لَقَدْ جاءَنا طَبيبٌ جَديدٌ إذا كانَ ذَلِكَ يُهِمُّكَ . فَقَدْ رَحَلَ الدُّكْتور ميتْشِل العَجوزُ في أكْتوبَر ، وَذَهَبَ لِيَعيشَ مَعَ شَقيقَتِهِ في الرّيفِ ، وَجاءَنا بَدَلاً مِنْهُ الدُّكْتور الشّابُّ وارن . وَهُوَ يَبْدو رَجُلاً لَطيفاً .»

« إنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ پُورْتشيسْتر يُهِمُّني ، فامْضِ في سَرْدِ الأخْبار عَلَيَّ .»

قالَتْ آني : « لَقَدْ رَحَلَتِ السَّيِّدَةُ وُود .»

قُلْتُ مُسْتَفْسِراً : « السَّيِّدَةُ وُود ؟ مَنْ هِيَ السَّيِّدَةُ وُود ؟ أَيْنَ كانَتْ تَعيشُ ؟ لا أَظُنُّني أَعْرِفُها .»

قالَتْ آني : « نَعَمْ ، إِنَّكَ لا تَعْرِفُها ، فَإِنَّها لَمْ تَكُنْ تَخرُجُ كَثيراً عِنْدَما كانَتْ تَعيشُ هُنا .»

« وَأَيْنَ قُلْتِ إِنَّها عاشَتْ ؟»

اِبْتَسمَتْ آني قائِلَةً : « أَنا لَمْ أَقُلْ . اِنْتَظِرْ لَحْظَةً يا بِل ، وَسَأُخْبِرُكَ بِكُلِّ ما أَعْرِفُ . إِنَّ السَّيِّدَةَ وُود امْرَأَةٌ طاعِنَةٌ في السِّنِّ ، وَلَمْ تَكُنْ تَخْرُجُ كَثيراً لأَنَّها لا تَسْتَطيعُ المَشْيَ بِسُهولَةٍ ، وَقَدْ رَحَلَتْ قُبَيْلَ رَأْس



السَّنَةِ ، وَهِيَ الآنَ تَعيشُ مَعَ ابْنِها في أَسْتُرالْيا . وَكانَتْ تَعيشُ في المَنْزِلِ المُقابِلِ لَنا عَلى الرَّصيفِ الآخَرِ ، أَي المَنْزِلِ الَّذي تُوجَدُ أَمامَ نَوافِذِهِ الشُّجَيْراتُ الكَثيفَةُ .»

قُلْتُ : « أَعْرِفُ ، فَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ دائِماً بِأَنَّ شَخْصاً ما يَتَطَلَّعُ مِنَ النّافِذَةِ الَّتي بِالطّابَقِ العُلْوِيِّ ، وَلكِنّي لَمْ أَكُنْ عَلى يَقينٍ مِنْ ذلِكَ ؛ لأَنَّ الشُّجَيْراتِ تُغَطّي جُزْءاً مِنَ النّافِذَةِ .»

قالَ جاك بِلَهْجَةٍ غاضِبَةٍ : « لَقَدْ قَضَتِ السَّيِّدَةُ وُود جُلَّ وَقْتِها تُحَدِّقُ مِنْ خِلالِ تِلْكَ النّافِذَةِ !» وَكانَ جاك مِنَ الرِّقَّةِ حَتّى إِنَّ غَضَبَهُ أَدْهَشَني ، فَلَمْ أَرَهُ قَطُّ غاضِباً مِنْ قَبْلُ .

قالَتْ آني : « كُنْ مُنْصِفاً يا جاك ، فَقَدْ كانَتْ وَحيدَةً . إِنَّها كانَتْ تُحِبُّ مُراقَبَةَ النّاسِ ، لأَنَّها كانَتْ تُزيلُ مِنْ نَفْسِها الشُّعورَ بِالوَحْدَةِ وَهِيَ تَنْظُرُ مِنَ النّافِذَةِ وَتُراقِبُ ما كانَ يَحْدُثُ بِالخارِجِ .»

« إِذا كانَتْ وَحيدَةً فَذاكَ ذَنْبُها وَحْدَها . أَ نَسيتِ كَمْ كانَتْ فَظَّةً مَعَكِ ؟»

قالَتْ آني : « لَقَدِ اتَّفَقْنا عَلى أَلّا نَتَحَدَّثَ في هذا المَوْضوعِ مَرَّةً أُخْرى ، وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَلومَ السَّيِّدَةَ العَجوزَ لأَنَّها كانَتْ تَجْلِسُ بِجِوارِ

نافِذَتِها ؛ وَكانَتْ مُراقَبَةُ ما يَحْدُثُ في الشّارِعِ تُدْخِلُ في نَفْسِها السُّرورَ . لَقَدْ كُنْتُ أشْفِقُ عَلَيْها .»

رَدَّ جاك : « أمّا أنا فأشْفِقُ على ابْنِها . إنَّني ما كُنْتُ لأرْضى بأنْ تَعيشَ تِلْكَ العَجوزُ مَعَنا في بَيْتي ، وَلكِنَّني آمُلُ ألا يَتَعارَكا كَثيراً ، وَأتَمَنّى أنْ تَعيشَ مَعَهُ إلى الأبَدِ . إنّها لَنْ تَشْعُرَ بِالوَحْدَةِ هُناكَ ، وَلا أريدُها أنْ تَعودَ إلى شارِعِ فُور مَرَّةً أخرى .»

« جاك ، إنَّكَ ...»

لَمْ أعْرِفْ ماذا كانَتْ تُريدُ آني أنْ تَقولَهُ ، وَلكِنَّني رَأيْتُ الاثْنَيْنِ وَقَدْ تَمَلَّكَهُما الغَضَبُ ، فَحَوَّلْتُ مَجْرى الحَديثِ مُسْتَفْسِراً عَنِ الطَّبيبِ الجَديدِ ، وَبِهذا كَفَفْنا تَماماً عَنِ الخَوْضِ في سيرَةِ السَّيِّدَةِ وُود ، وَعادَ صَديقي وَزَوْجَتُهُ إلى صَفائِهِما ثانِيَةً . لَقَدْ كانَ كُلٌّ مِنْهُما عادَةً لَطيفاً مَعَ الآخَرِ ، وَأدْهَشَني أنْ أرى امْرَأةً عَجوزاً تُعَكِّرُ صَفْوَهُما .

وفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ آوَيْتُ إلى الفِراشِ مُبَكِّراً ، وَلكِنَّ النَّوْمَ جافاني ، فَنَظَرْتُ إلى ساعَتي فَوَجَدْتُها تُشيرُ إلى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ . وَحاوَلْتُ أنْ أقْرَأ كِتاباً ، غَيْرَ أنَّ اهْتِمامي بِالقِراءَةِ لَمْ يَدُمْ ؛ فَقَدْ كُنْتُ أفَكِّرُ في جاك وَآني : لِماذا أزْعَجَهُما الحَديثُ عَنِ السَّيِّدَةِ وُود ؟ فَتِلْكَ المَرْأةُ

العَجوزُ الوَحيدَةُ تَعيشُ الآنَ بَعيداً في أسْتِراليا ، وَمَعَ ذَلِكَ تَمَلَّكَهُما الغَضَبُ بِسَبَبِها . وَقَدْ حاوَلَتْ آني أنْ تَكونَ مُنْصِفَةً ، غَيْرَ أنّها لَمْ تَكُنْ تُحِبُّها ، بَلْ كانَتْ تُشْفِقُ عَلَيْها ، أوْ عَلى الأقَلِّ كانَتْ تَقولُ إنّها تُشْفِقُ عَلَيْها . وَلكِنَّ الَّذي دارَ في خَلَدي أنَّ آني كانَتْ غاضِبَةً مِنْها مِثْلَما كانَ جاك غاضِباً . غَيْرَ أنَّ الفَرْقَ بَيْنَهُما أنَّ آني لَمْ تُظْهِرْ مَشاعِرَ غَضَبِها .

نَهَضْتُ مِنَ الفِراشِ وَذَهَبْتُ إلى النّافِذَةِ ، وَرُحْتُ أحَمْلِقُ إلى بَيْتِ السَّيِّدَةِ وُود عَبْرَ الشّارِعِ ، وَكانَ القَمَرُ مُتَلألِئاً ، فاسْتَطَعْتُ أنْ أرى واجِهَةَ البَيْتِ بِوُضوحٍ ، وَكانَتْ أوْراقُ الشُّجَيْراتِ الكَثيفَةُ تَهْتَزُّ بِبُطْءٍ مَعَ هَبّاتِ النَّسيمِ الرَّقيقِ .

قُلْتُ لِنَفْسي : « ما أبْدَعَها مِنْ لَيْلَةٍ ! سَيَكونُ الطَّقْسُ مُناسِباً لِرِحْلَتي .»

وَلاحَظْتُ أنَّهُ كانَتْ ثَمَّةَ سَتائِرُ عَلى نَوافِذِ بَيْتِ السَّيِّدَةِ وُود ؛ إذاً فَهِيَ لَمْ تَتْرُكِ البَيْتَ خالِياً . لَقَدْ بَدا البَيْتُ وَكَأنَّهُ مَأهولٌ . وَقَدْ جَعَلَتْني السَّتائِرُ أظُنُّ أنَّ في الدّارِ ساكِناً ، فَتَمْتَمْتُ لِنَفْسي : « لَعَلَّكِ لا تَزالينَ هُناكَ ، يا سَيِّدَةُ وُود !»

وَعِنْدَئِذٍ رَأيْتُ إحْدى السَّتائِرِ المُعَلَّقَةِ عَلى إحْدى النَّوافِذِ بِالطّابَقِ

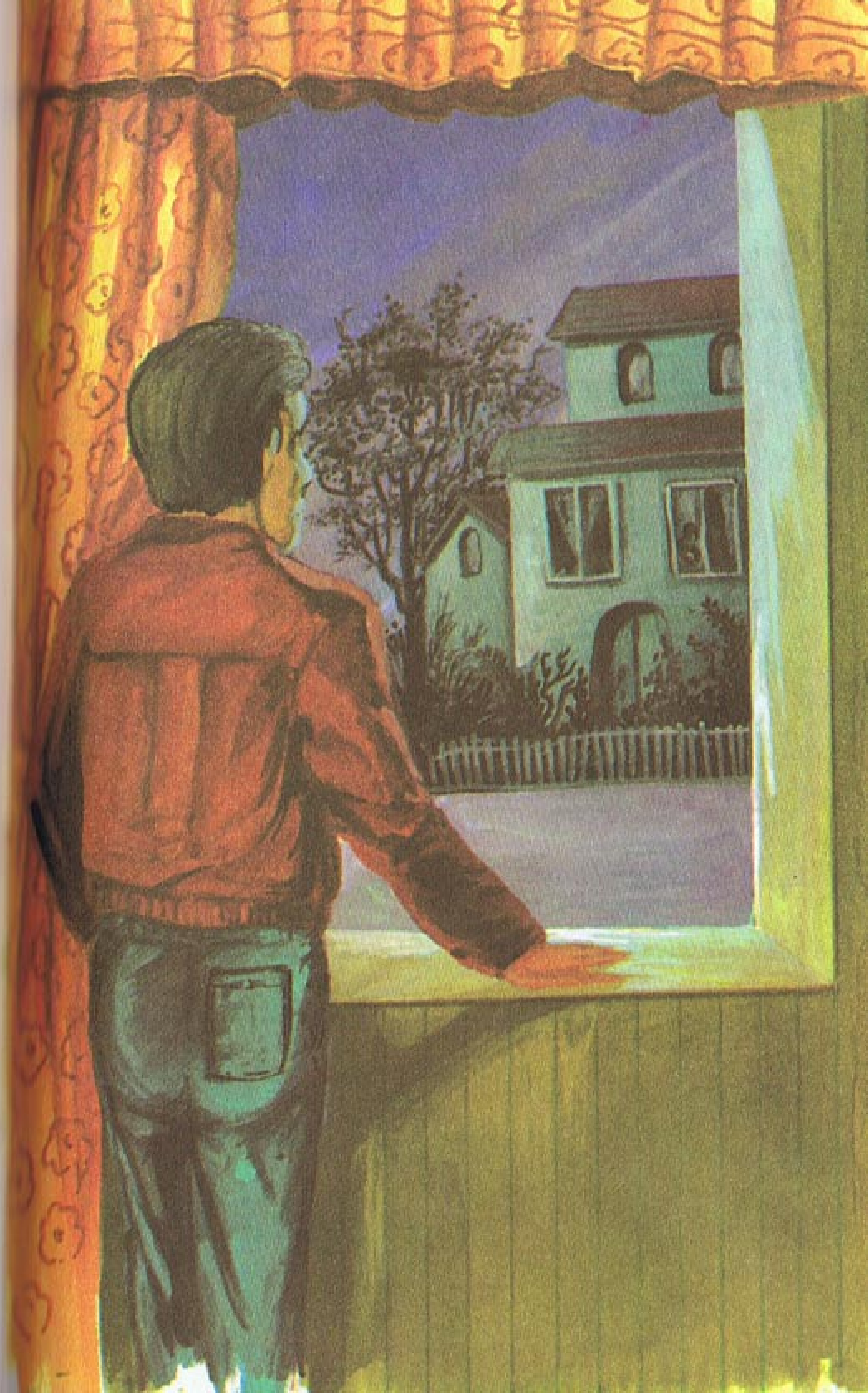
الأعلى تتحرَّكُ . كانَ هُناكَ شَخْصٌ ما ! لَقَدْ كانَتِ السَّيِّدَةُ وود تُحاولُ أنْ تَراني بِوُضوح !

وَتملَّكَني الرُّعْبُ ، وَابْتَعَدْتُ عَن النَّافِذَةِ بِسُرْعَةٍ وَقَفزْتُ إلى الفِراش ، حَيْثُ رَقَدْتُ في الظَّلام مُرْتَعِباً . لَقَدْ كانَتْ تُراقِبُني .

واسْتَرْدَدْتُ شَجاعَتي بِبُطءٍ ، وَقُلْتُ لِنَفْسي: « يا لَكَ مِنْ أحْمَقَ ! إنَّ السَّتارَةَ لَمْ تَتَحَرَّكْ ، وَإنَّما أوْراقُ الشُّجَيْراتِ هِيَ الَّتي تَتَحَرَّكُ عِنْدَما تَهُبُّ الرِّيحُ . وَهذا ما حَدَثَ ؛ لَقَدْ حَرَّكَتِ الرِّيحُ الأوْراقَ أمامَ النَّافِذَةِ ، فَظَنَنْتَ أنْتَ أنَّ السَّتارَةَ تَحَرَّكَتْ . وإذا كانَتِ السَّيِّدَةُ وود مَوْجودَةً في المَنْزل ، فَإنَّها لَنْ تَسْتَطيعَ إيذاءَكَ ، فَهِيَ امْرَأَةٌ عَجوزٌ وَحيدَةٌ ، وَأنْتَ رَجُلٌ قَويٌّ مُمْتَلِئٌ عافِيَةً . فَما الَّذي تَخْشاهُ إذاً ؟ وَمَهْما يَكُنْ مِنْ أمْرٍ فَهِيَ لَيْسَتْ في المَنْزل ، بَلْ عِنْدَ ابْنِها في أسْتْراليا .»

عِنْدَئِذٍ تَحَسَّنَتْ حالَتي ، وَلكِنْ مَضى وَقْتٌ طَويلٌ قَبْلَ أنْ أسْتَغْرِقَ في النَّوْم . وَرَأيْتُ في نَوْمي أحْلاماً مُفْزِعَةً . لَقَدْ رَأيْتُني أُحاولُ الهَرَبَ مِنْ مَنْزِلٍ غَريبٍ مُظْلِم ، وَكانَتْ ثَمَّةَ امْرَأَةٌ عَجوزٌ تُراقِبُني .

وَعِنْدَما صَحَوْتُ مِنْ نَوْمي كُنْتُ أشْعُرُ بِالإرْهاقِ وَالضّيق . لَقَدْ بَدَأَتْ عُطْلَتي بِدايَةً سَيِّئَةً . وَاغْتَسَلْتُ ثُمَّ ارْتَدَيْتُ ثِيابي ، وَفَتَحْتُ



نافذةَ غُرْفةِ نَوْمي وَالتَقطْتُ صورةً لِبيْتِ السَّيِّدَةِ وُود . وَكانَتْ شَمْسُ الصَّباحِ تُلْقي بِضيائِها على واجهَةِ البَيْتِ ، وَكانَتِ الشُّجَيْراتُ تُلْقي هِيَ الأُخْرى بِظِلالِها عَلَيْهِ ، وَبَدا البَيْتُ أنيقاً . وَكُنْتُ حَريصاً وَأنا ألْتَقِطُ الصّورَةَ ، فَقَدْ كُنْتُ أُريدُ أنْ آخُذَ صورَةً رائِعَةً بِحَقٍّ .

بَعْدَ ذلِكَ وَضَعْتُ آلَةَ التَّصْويرِ جانِباً ، وَنَزَلْتُ إلى أسْفَلَ فَوَجَدْتُ جاك وَحْدَهُ في المَطْبَخِ ، فَسَألَني : « ماذا بِكَ ؟ إنَّكَ تَبْدو مُرْهَقاً ! »

« إنَّني لَمْ أنَمْ جَيِّداً . »

قالَ : « وَآني كَذلِكَ ، وَلِذا جَعَلْتُها تَبْقى في الفِراشِ . لَقَدْ رَأَتْ أحْلاماً مُزْعِجَةً ، وَأظُنُّ أنَّها رَأَتْ في أحْلامِها تِلْكَ العَجوزَ الَّتي كانَتْ تَعيشُ قُبالَتَنا . »

وَلَمْ تُكْثِرْ آني مِنَ الكَلامِ أثْناءَ الطَّعامِ ، وَلَمّا فَرَغْنا مِنْ إفْطارِنا رُحْتُ أسْألُهُ : « جاك ، أخْبِرْني عَنِ السَّيِّدَةِ وُود . لِمَ غَضِبْتَ عِنْدَما كُنْتَ أنْتَ وَآني تَتَحَدَّثانِ عَنْها ؟ »

أجابَ : « لَقَدْ كانَ ذلِكَ حَماقَةً مِنّي ، فَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغي أنْ أنْفَعِلَ بِهذا الشَّكْلِ ؛ فَهِيَ ، مَعَ كُلِّ هذا ، لَيْسَتْ هُنا الآنَ . إنَّها بَعيدَةٌ عَنّا ؛ إنَّها في أسْتُرالْيا . »

قُلْتُ : « إنَّكَ لَمْ تُجِبْ عَنْ سُؤالي . إنَّها امْرَأةٌ عَجوزٌ وَهِيَ بَعيدَةٌ جِداً عَنْكُما ، وَلكِنَّكَ أنْتَ وَآني تَشاجَرْتُما بِسَبَبِها ، فَلِماذا ؟ »

« سَأُخْبِرُكَ : لَقَدْ حاوَلَتْ آني دائِماً مُساعَدَتَها ، وَكانَتْ تَزورُها في كَثيرٍ مِنَ الأحْيانِ ، وَتَبْتاعُ لَها ما تَحْتاجُهُ وَتَطْهو لَها الطَّعامَ ، وَكانَتْ تَجْلِسُ مَعَها وَتُسَرّي عَنْها بِالحَديثِ ؛ أقْصِدُ أنْ أقولَ إنَّها كانَتْ مَعَها وَتُنْصِتُ إلَيْها ، فَقَدْ كانَتِ العَجوزُ تَتَكَلَّمُ أكْثَرَ مِمّا تَسْمَعُ . »

« وأنْتَ ، ألَمْ تَزُرْها مَعَ آني ؟ »

« نَعَمْ . إنَّني لَمْ أكُنْ أُحِبُّ السَّيِّدَةَ وُود قَطُّ ، وَلَمْ أكُنْ أوافِقُ عَلى أنْ تَقْضِيَ آني وَقْتاً طَويلاً مَعَها . وَكُنْتُ مُصيباً ، فَقَدْ أساءَتْ في النِّهايَةِ إلَيْها . »

وَأمْسَكَ جاك عَنِ الكَلامِ ، فَانْتَظَرْتُ حَتّى يُكْمِلَ قِصَّتَهُ ، إلا أنَّهُ كانَ يُحَدِّقُ إلى نافِذَةِ المَطْبَخِ . لَقَدْ نَسِيَ أنَّني جالِسٌ مَعَهُ .

قُلْتُ : « جاك ! إنّي مُنْتَظِرٌ أنْ تُكْمِلَ قِصَّتَكَ . »

التَفَتَ إلَيَّ قائِلاً : « ذاتَ يَوْمٍ عادَتْ آني مِنْ زِيارَةِ السَّيِّدَةِ وُود ، وَكانَتْ تَبْدو مُرْهَقَةً وَمَريضَةً . وَلَمّا سَألْتُها عَمّا حَدَثَ ، تَجَنَّبَتْ أنْ

تَقولَ شيْئًا ، ولَكِنِّي جعلْتُها تتكَلَّمُ ، فَقالَتْ إنَّ السَّيِّدَةَ وُود كانَتْ فَظَّةً وَعَنيفَةً بِطَريقَةٍ أخافَتْها . ولَمْ تَذْهَبْ آني إليْها بَعْدَ ذلِكَ قَطُّ ، لأنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ نِسْيانَ ما قالَتْهُ لَها .»

لَمْ تَكُنْ قِصَّةُ جاك واضِحَةً تماماً ، ولَكِنِّي أنْصَتُّ جَيِّداً ، فَفَهِمْتُ فَحْواها . لَقَدْ كانَتِ المَرْأةُ العجوزُ تَعْرِفُ أنَّ جاك لا يُحِبُّها ، فقالَتْ لآني إنَّها تَكْرَهُهُ . أمّا آني فَقَدْ حاولَتِ التَّعَلُّلَ بأنَّ السَّيِّدَةَ وُود لا تَفْهَمُ زَوْجَها ، وأنَّه رَجُلٌ طَيِّبُ القَلْبِ ، غَيْرَ أنَّ العَجوزَ لَمْ تُعِرْها أذُنًا مُصْغِيَةً ، وإنَّما صَرَخَتْ في وَجْهِها ، وَ وَصَفَتْها بِأنَّها شِرِّيرَة مِثْلُ زَوْجِها ، وأنَّها سَتَطْرُدُهُما مِنْ دارِهِما .

وانْتَظَرْتُ حَتّى فَرَغَ جاك مِنْ كَلامِهِ ثُمَّ قُلْتُ : « إنَّها قِصَّةٌ جِدُّ بَغيضَةٍ ، والسَّيِّدَةُ وُود امْرَأةٌ عَجوزٌ مُزْعِجَةٌ ، ولَكِنِّي لا أفْهَمُ لِماذا تَرَكْتُما هذِهِ المَرْأةَ تُسَبِّبُ لَكُما هذا الإزْعاجَ ؟ لَقَدْ رَحَلَتْ ، ولَنْ تَسْتَطيعَ إيذاءَكُما ، حَتّى وَإنْ كانَتْ هُنا . إنَّها عَجوزٌ سَخيفَةٌ غَضوبٌ !»

وَنَظَرَ جاك إلَيَّ وَسَألَني : « ما الَّذي مَنَعَكَ مِنَ النَّوْمِ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ؟»

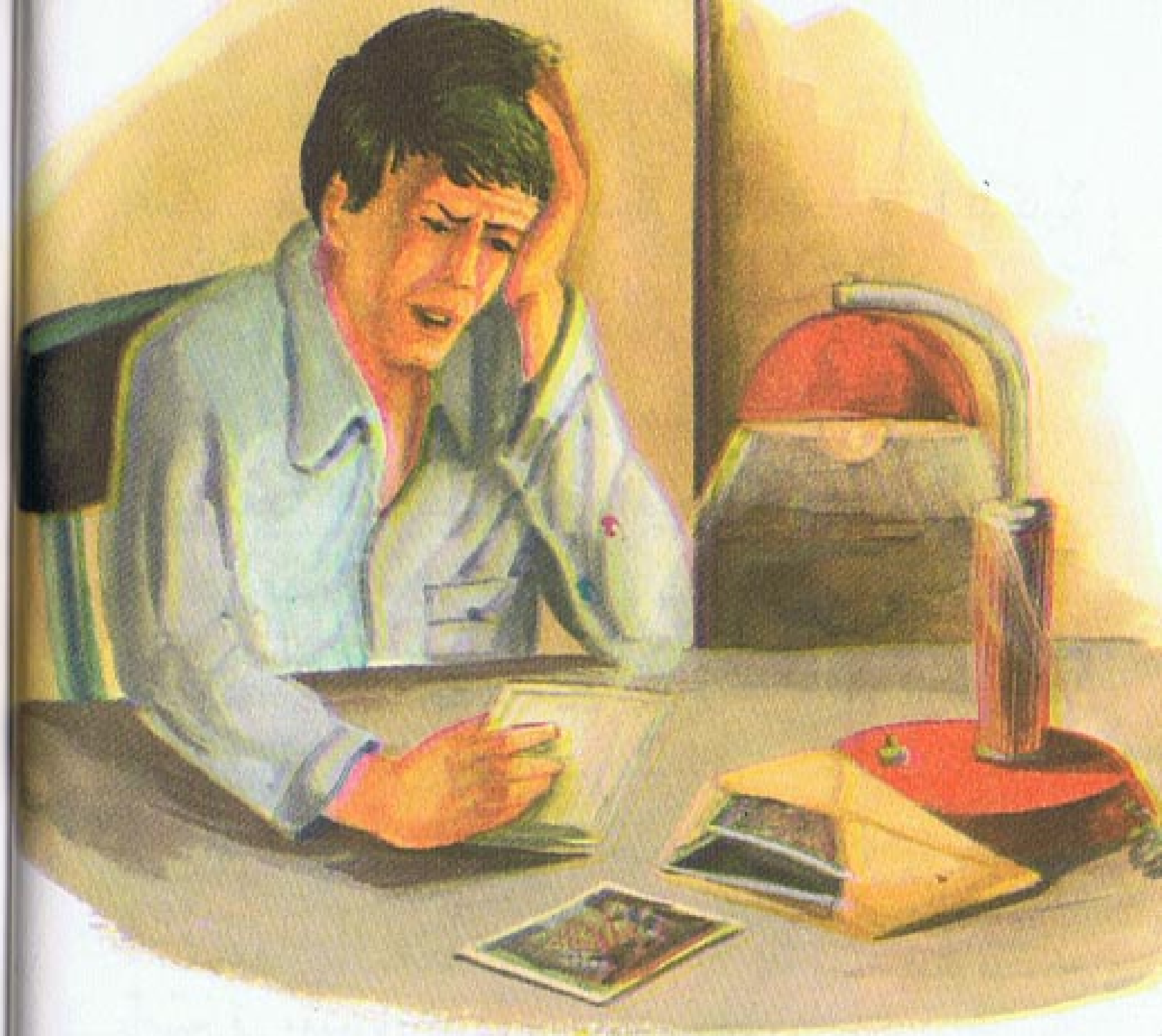
لَمْ أسْتَمْتِعْ بِعُطْلَتي رَغْمَ أنّي عَمِلْتُ كُلَّ الأشْياءِ الَّتي اعْتَدْتُ أنْ

أعْمَلَها : فَقَدْ سِرْتُ مَسافاتٍ طَويلَةً ، وَالْتَقَطْتُ صُوَراً تَذْكارِيَّةً ، وَدَرَسْتُ تاريخَ پُورْتشيسْتر ، وَمَعَ ذلِكَ لَمْ أسْتَمْتِعْ بِها .

لَقَدْ كانَ جاك وزوجَتُهُ جِدَّ لَطيفَيْن ، مَعي وَظَلِلْنا مَشْغوفين بِبَعْضِنا بَعْضاً كَما كُنّا مِنْ قَبْلُ ، غَيْرَ أنَّهُ كانَ ثَمَّةَ خَلَلٌ ، أوْ شَيْءٌ مِنَ التَّوَتُّرِ يَشوبُ عَلاقَتَهُما . وَكانا يَتَشاجَرانِ ، وَكَفّا عَنِ الجُلوسِ لَيْلاً لِتَبادُلِ الحَديثِ بِجِوارِ المِدْفَأةِ . وَكانا يَقِفانِ وَيُحَمْلِقانِ مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ الأمامِيَّةِ إلى بَيْتِ السَّيِّدَةِ وُود . وَكُنْتُ كُلَّما آوَيْتُ إلى فِراشي خُيِّلَ إلَيَّ أنَّني أرى وَجْهَها يُطِلُّ مِنْ نافِذَتِها . وَأصْبَحْتُ أتَطَلَّعُ إلى العَوْدَةِ لِبَيْتي ، وَغَمَرَتْني الفَرْحَةُ عِنْدَما انْتَهَتْ عُطْلَتي ، وَأصْبَحَ في مَقْدوري الهَرَبُ مِنْ پُورْتْشيسْتر .

وَعَجَزْتُ عَنْ مُساعَدَةِ جاك وَآني ، فَقَدْ حاوَلْتُ التَّقْريبَ بَيْنَهُما دونَ جَدْوى .

وَبَعْدَ أنْ عُدْتُ إلى بَيْتي بِبِضْعَةِ أيّامٍ ، جاءَ مُوَزِّعُ البَريدِ وَسَلَّمَني الصُّوَرَ الَّتي كُنْتُ قَدِ الْتَقَطْتُها هُناكَ . وَكُنْتُ قَدْ أرْسَلْتُ الأفْلامَ بِالبَريدِ قَبْلَ أنْ أغادِرَ پُورْتْشيسْتر ، وَها هِيَ ذي أمامي لأراها . وَكُنْتُ عادَةً أسارِعُ إلى رُؤْيَةِ الصُّوَرِ الَّتي ألْتَقِطُها ، فَلَمْ أكُنْ أطيقُ الانْتِظارَ . أمّا الآنَ فَقَدْ تَمَلَّكَني الخَوْفُ ، وَوَقَفْتُ أحَمْلِقُ إلى رَبْطَةِ الصُّوَرِ دونَ



أنْ أجْرُؤَ على فَتْحِها ؛ إذْ كُنْتُ أخْشى مِمّا سأراهُ .

وَأخيراً استَجْمَعْتُ شَجاعَتي ، وَحَمَلْتُ نَفْسي عَلى فَكِّ الرِّبْطَةِ . وَرُحْتُ أفَتِّشُ في بُطءٍ عَنِ الصّورَةِ الَّتي كُنْتُ أخْشى رُؤْيَتَها . كانَتْ أمامي هُناكَ – أقْصِدُ الصّورَةَ الَّتي كُنْتُ جِدَّ حَريصٍ وَأنا ألْتَقِطُها – صورَةَ مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ وُود . وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ فيها واضِحاً تَماماً : الحَديقَةُ ، والشَّجَرَةُ ، وَالبابُ الأماميُّ . وَفي نافِذَةٍ بِالطّابَقِ العُلْويِّ كانَ ثَمَّةَ وَجْهٌ لامرأةٍ عَجوزٍ تُحَمْلِقُ مِنْ خِلالِ الزُّجاجِ !

وَكُنْتُ مُمْسِكاً بِتِلْكَ الصّورَةِ المُرْعِبَةِ عِنْدَما فُتِحَ بابُ شَقَّتي بِعُنْفٍ ، وَإذا بِجاك يَنْدَفِعُ داخِلَها . وَكانَ يَبْدو مُهْتاجاً ، وَكانَتْ مَلامِحُهُ تَبْدو غَريبَةً ، حَتّى إنَّني كِدْتُ لا أتَعَرَّفُ عَلَيْهِ ، وَحاوَلْتُ إخْفاءَ الصّورَةِ ، وَلكِنَّهُ كانَ أسْرَعَ مِنّي ، فَقَدِ انْتَزَعَها مِنْ يَدي .

قالَ : « اُنْظُرْ ، ها هِيَ ذي . إنَّ ذلِكَ الكائِنَ الَّذي يَتَطَلَّعُ مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ هُوَ السَّيِّدَةُ وُود .»

« لكِنْ ، يا جاك ، هذا غَيْرُ مُمْكِنٍ ! فإنَّها بَعيدَةٌ جِداً عَنْ هُنا .. إنَّها ..»

وَلَمْ يَدَعْني أُتِمُّ كَلامي . وَلَنْ أنْسى ماحَييتُ كَلِماتِهِ ، وَلا النَّظْرَةَ المُرْعِبَةَ الَّتي ارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ .

قالَ : « لَقَدْ ماتَتِ السَّيِّدَةُ وُود ، يا بِل ، في أسْتُراليا في اليَوْمِ الَّذي جِئْتَ فيهِ أنْتَ إلى بُورْتشيسْتر أوَّلَ مَرَّةٍ لِقَضاءِ عُطْلَتِكَ . وَقَدْ عَلِمْنا بِالخَبَرِ بَعْدَ أنْ سافَرْتَ بِفَتْرَةٍ وَجيزَةٍ .»

أشَرْتُ إلى الوَجْهِ المُطِلِّ مِنَ النّافِذَةِ وَأنا أقولُ بِدَهْشَةٍ : « ماذا ؟! كَيْفَ تُفَسِّرُ هذا ؟!»

« لا أعْرِفُ .. لا أسْتَطيعُ .. كُلُّ ما أعْرِفُهُ أنَّها عادَتْ إلى بَيْتِها.»

وَغَمَرَني الخَوْفُ مِنْ جَديدٍ ، وَصِحْتُ : « آني ! كَيْفَ حالُ آني يا جاك ؟ هَلْ تَعْلَمُ أنَّ السَّيِّدَةَ وُود عادَتْ إلى بَيْتِها ؟ »

وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ الشَّيْخوخَةِ وَالمَرَضِ ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أنَّهُ سَيَسْقُطُ عَلى الأَرْضِ ، فَأَمْسَكْتُ بِذِراعِهِ وَمَضَيْتُ بِهِ إلى كُرْسِيٍّ . وَأخيراً تَكَلَّمَ ، وَكانَ صَوْتُهُ ضَعيفاً إلى حَدٍّ أنَّني كِدْتُ لا أَسْمَعُهُ .

قالَ : « لَقَدْ سَمِعْنا في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ طَرْقاً عَلى البابِ ، فَمَضَتْ آني لِتَفْتَحَهُ . وَكُنْتُ أنا في المَطْبَخِ ، وَلَكِنَّني اسْتَطَعْتُ أنْ أسْمَعَ صَوْتَها وَهِيَ تَصْرُخُ ، وَكانَتْ صَرْخَةَ فَزَعٍ عالِيَةً لَنْ أنْساها ما حَيِيتُ. لَقَدْ قالَتْ : « السَّيِّدَةُ وُود ! لَقَدْ عُدْتِ إلى البَيْتِ ! »

« وَهُرِعْتُ إلى البابِ حَيْثُ وَجَدْتُ آني مُلْقاةً هُناكَ وَقَدْ فارَقَتْها الحَياةُ . وَقَدْ قالَ لِيَ الطَّبيبُ إنَّها ماتَتْ مِنَ الرُّعْبِ . »

شَبَحُ الحَديقَةِ

قَضَيْتُ حَياتي في كِفاحٍ وَكَدٍّ ، حَتّى إذا ما بَلَغْتُ السِّتّينَ قَرَّرْتُ أنْ أَسْتَريحَ مِنْ عَناءِ العَمَلِ ، فَبِعْتُ بَيْتي في المَدينَةِ ، وَاشْتَرَيْتُ آخَرَ في الرِّيفِ ، فَقَدْ كُنْتُ تَوّاقاً دائِماً إلى حَياةِ الرِّيفِ . وَأَرَدْتُ أنْ أَسْتَمْتِعَ بِهُدوئِهِ مِنْ بَعْدِ صَخَبِ المَدينَةِ وَسُرْعَةِ إيقاعِ الحَياةِ فيها . وَكُنْتُ أَرْغَبُ في أنْ يَكونَ لَدَيَّ حَديقَةٌ كَبيرَةٌ أَزْرَعُ فيها الأَزْهارَ وَالخَضْراواتِ . وَ وافَقَتْني زَوْجَتي ، فَقَدْ وُلِدَتْ في الرِّيفِ ، وَكانَتْ حَريصَةً عَلى العَوْدَةِ لِحَياةِ الهُدوءِ ، وَكانَتْ تُشارِكُني شَغَفي بِزِراعَةِ الحَدائِقِ . وَذاتَ يَوْمٍ أَنْهَيْتُ إلَيْها خَبَراً سَرَّها ، وَهُوَ أنَّني ادَّخَرْتُ مِنَ النُّقودِ ما يَكْفيني مَئونَةَ العَمَلِ .

قالَتْ لي زَوْجَتي : « لَقَدْ كُنْتُ أَتَطَلَّعُ إلى ذَلِكَ ، يا هَنْري ، مِنْ سَنَواتٍ . وَقَدْ كُنّا دائِماً مُتَّفِقَيْنِ في المَشارِبِ وَالاهْتِماماتِ . وَالآنَ حانَ الوَقْتُ الَّذي نَسْتَمْتِعُ فيهِ بِالحَياةِ مَعاً . »

وَهكَذا بَدَأنا البَحْثَ عَنْ دارٍ مُناسِبَةٍ في الرِّيفِ ، وَما كانَ العُثور على الدار المَطْلوبَةِ بِالأمْرِ الهَين . وَلَمْ نَكُنْ نُريدُ داراً كَبيرَةً بَلْ حَديقَةً كَبيرةً . وَكُنّا نُريدُها داراً مُشْمِسَةً . وَقَدْ سافَرْنا ساعاتٍ طَويلَةً لِنَرى البُيوتَ المَعْروضَةَ لِلْبَيْع . وَكُنّا كُلّما رَأيْنا لافِتَةً مَكْتوباً عَلَيْها « لِلْبَيْع » خارِجَ إحْدى الدُّور تَوَقَّفْنا لِنُلْقِيَ نَظْرَةً عَلى تِلْكَ الدّار ، غَيْرَ أنّها لَمْ تَكُنْ تُعْجِبُنا . وَقَدْ أضْنانا البَحْثُ الدَّءوبُ عِدَّةَ أشْهُرٍ . وَلَوْ لَمْ نَكُنْ مُتَّفِقينَ في الرَّأيِ حَوْلَ نَوْعِ المَنْزِلِ الَّذي نُريدُهُ لاخْتَصَمْنا ، بَيْدَ أنّنا كُنّا نَعْرِفُ جَيِّداً ما نُريدُ ، وَكُنّا موقِنينَ بِأنَّنا سَنَجِدُ ضالَّتَنا .

وَقالَ كُلٌّ مِنّا لِلآخَر : « يَنْبَغي ألا نَكُفَّ عَنِ السَّعْيِ فَمِنَ المُحْتَمَلِ أنْ تَكونَ الدّارُ القادِمَةُ هِيَ الَّتي نَنْشُدُها . »

وَأخيراً عَثَرْنا عَلى الدّارِ الَّتي كُنّا نَحْلُمُ بِها ؛ فَفي إحْدى القُرى في هامْپشاير ، وَعَلى مَسافَةِ ثَمانينَ كيلو مِتْراً مِنْ لَنْدَن اكْتَشَفْنا « ساموِيز » . وَكانَتْ داراً بِالسَّعَةِ المَنْشودَةِ ، مَبْنِيَّةً مِنَ الحِجارَةِ ، وَدافِئَةً يَغْمُرُها ضَوْءُ الشَّمْس ، وَمُريحَةً لِلْغايَةِ . وَكانَتْ ثَمَّةَ حَديقَةٌ صَغيرَةٌ بَيْنَ واجِهَةِ الدّارِ وَشارِعِ القَرْيَةِ الهادِئ ، وَمَمْشًى يُؤَدّي إلى دَرَجِ البابِ الأماميِّ . أمّا في الخَلْفِ فَكانَتْ ثَمَّةَ حَديقَةٌ واسِعَةٌ مَليئَةٌ بِأشْجارِ الفاكِهَةِ وَالأزْهار . وَكانَتِ الشَّمْسُ مُشْرِقَةً وَالحَديقَةُ يَغْمُرُها

الضَّوْءُ وَالدِّفْءُ .

وَعِنْدَما لَمَحْنا اللافِتَةَ المَكْتوبَ عَلَيْها لِلْبَيْعِ خارِجَ « ساموِيز » نَظَرَ كُلٌّ مِنّا إلى الآخَرِ وَقالَ : « إنَّ هذِهِ الدّارَ لَنا ، وَلا بُدَّ أنْ نَشْتَرِيَها . »

وَلَمْ نُساوِمْ في الثَّمَن ، فَقَدْ بَدا لَنا رَخيصاً ، وَكُنّا نُريدُ « ساموِيز » بِأيِّ ثَمَنٍ حَتّى وَإنْ كانَ غالِياً ، فَلَمْ تَكُنْ في نِيَّتِنا المُساوَمَةُ . وَهكَذا انْتَهى بَحْثُنا الطَّويلُ ، وَدَفَعْنا الثَّمَنَ وَاشْتَرَيْنا الدّارَ الَّتي كُنّا نَحْلُمُ بِها .

وَانْتَقَلْنا إلى « ساموِيز » في أواخِرِ فَصْلِ الرَّبيع . وَكانَ ثَمَّةَ أعْمالٌ كَثيرَةٌ نَقومُ بِها في الدّارِ الجَديدَةِ ، كَما هِيَ الحالُ دائِماً عِنْدَما تَنْتَقِلُ مِنْ دارٍ إلى أخْرى . وَقَدْ كُنّا نَعيشُ في المَدينَةِ في شَقَّةٍ عَصْرِيَّةٍ ، أمّا « ساموِيز » فَكانَتْ داراً مِنَ الطِّرازِ القَديم ، فَاشْتَرَيْنا مَناضِدَ وَمَقاعِدَ ، وَخِزاناتٍ وَأسِرَّةً تَتَناسَبُ مَعَ « ساموِيز » ، وَكانَ عَلَيْنا أنْ نَشْتَرِيَ سَجاجيدَ أيْضاً وَسَتائِرَ لِلنَّوافِذِ . وَكُنّا جِدَّ حَريصَيْنِ عَلى أنْ يوضَعَ كُلُّ شَيْءٍ في مَكانِهِ وَأنْ يَبْدُوَ جَميلاً ؛ فَهِيَ دارُنا الَّتي سَنَقْضي فيها بَقِيَّةَ حَياتِنا .

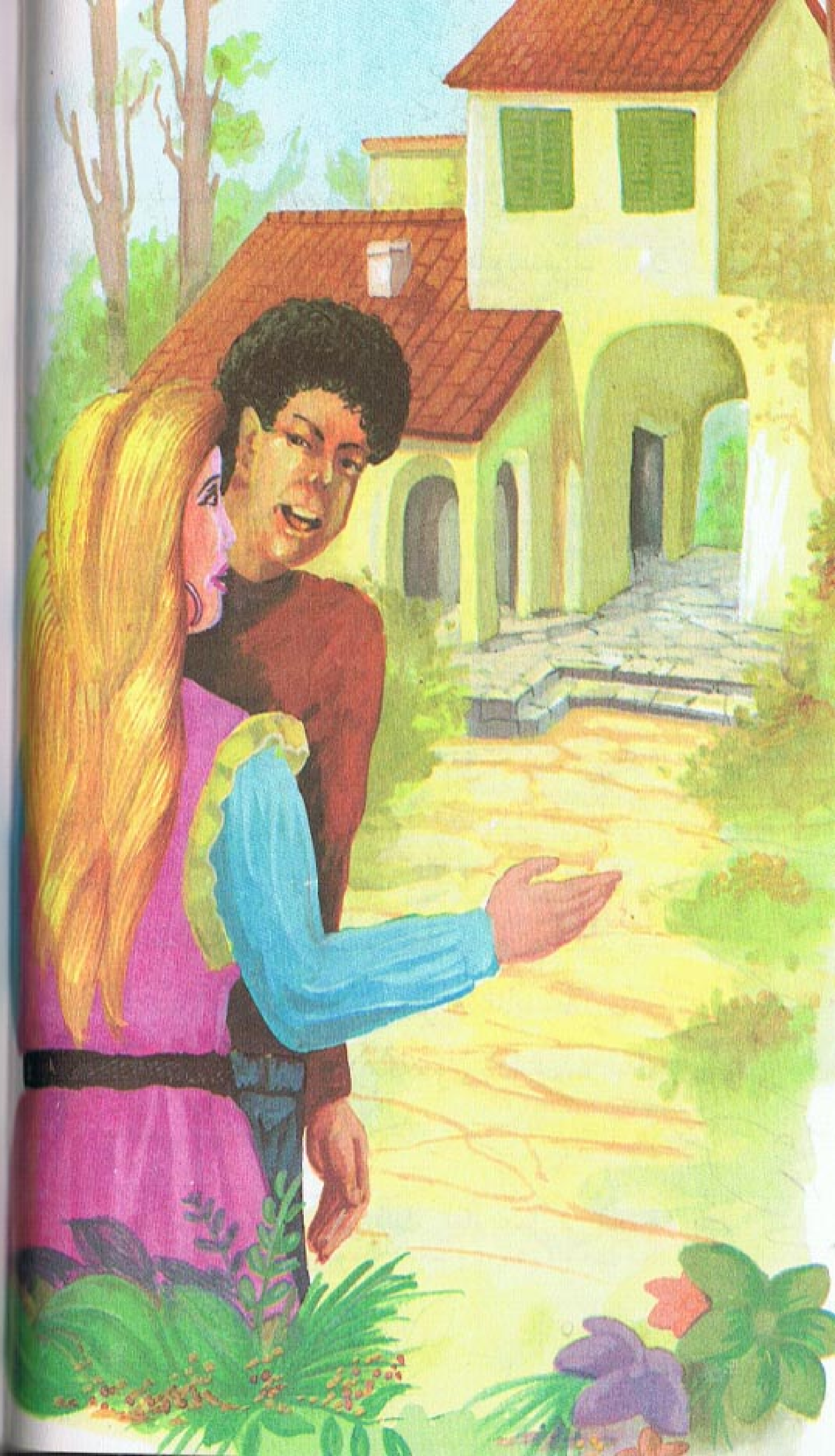
وَقَضَيْنا الرَّبيعَ وَالصَّيْفَ مِنْ ذلِكَ العامِ نَعْمَلُ في الحَديقَةِ بِجِدٍّ

وَاجْتِهادٍ . وَكانَ الطَّقْسُ جافًّا وَدافِئًا ، وَلِهذا كُنّا نَشْتَغِلُ فيها طَوالَ اليَوْمِ . وَكَثيراً ما كُنّا نَعْمَلُ بِلا تَوَقُّفٍ إلى أنْ يَجُنَّ اللَّيْلُ . وَلأنَّ المَنْزِلَ كانَ خالِياً مِنَ السُّكّانِ لِعِدَّةِ سَنَواتٍ ، فَقَدْ كانَتِ الحَديقَةُ مُهْمَلَةً وَتَحْتاجُ إلى عَمَلٍ مُتَواصِلٍ . فَرُحْنا نَحْفِرُ أحْواضاً لِلزُّهورِ وَأُخْرى لِلْخَضْراواتِ ، وَنُقَلِّمُ الأشْجارَ وَالشُّجَيْراتِ . وَغَرَسْنا بُزوراً وَزَرَعْنا أزْهاراً جَديدَةً . وَقَبْلَ انْتِهاءِ شَهْرِ أغُسْطُس (آب) كُنّا موقِنَيْنِ بِأنَّ حَديقَتَنا لَنْ تَقِلَّ جَمالاً عَنْ بَيْتِنا .

وَذاتَ يَوْمٍ مِنْ أيّامِ شَهْرِ سِبْتِمْبِر (أيْلول) ، كُنْتُ أشْتَغِلُ بِمُفْرَدي في الحَديقَةِ ، وَكانَتِ السّاعَةُ تُشيرُ إلى الخامِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَكانَتْ زَوْجَتي قَدْ دَخَلَتِ المَنْزِلَ لإعْدادِ الشّاي لَنا ، فَسَمِعْتُها تُناديني مِنْ شُبّاكِ غُرْفَةِ الجُلوسِ المَفْتوحِ قائِلَةً : « الشّايُ جاهِزٌ يا هَنْري ، وَعِنْدَنا زائِرٌ . لَقَدْ جاءَ السَّيِّدُ بارْنز واعِظُ القَرْيَةِ لِيَزورَنا ، وَسَوْفَ يَتَناوَلُ الشّايَ مَعَنا . »

وَدَخَلْتُ البَيْتَ ، وَصافَحْتُهُ قائِلاً : « لَقَدْ سَعِدْتُ لِمَجيئِكَ يا سَيِّدُ بارْنز . أنا وَجوان مَسْروران لِزِيارَتِكَ لَنا في بَيْتِنا . »

أجابَ : « إنَّها لَدارٌ عَتيقَةٌ جَميلَةٌ ، وَكُلُّ النّاسِ في القَرْيَةِ جِدُّ فَرِحينَ بِقُدومِكُما لِتَعيشا هُنا . إنَّكُما تُحْدِثانِ تَغْييراً مُدْهِشاً بِالدّارِ



وَالحديقةِ يا سَيِّدُ تشابْمان .»

قُلْتُ : « شُكْرًا لكَ ، وَيَجِبُ بَعْدَ تناوُلِ الشّاي أنْ ترى الحديقةَ الكُبْرى ، فإنَّكَ لَمْ تَرَ إلا الحَديقةَ الصَّغيرةَ الأماميَّةَ .»

أجابَ : « إنَّهُ لَيَسُرُّني ذلِكَ ، فَأنا مولَعٌ بِالحَدائِقِ ، غَيْرَ أنَّني لا أمْلِكُ الوَقْتَ الكافِيَ لِلْعِنايَةِ بِحَديقَتي .»

قالَتْ جُوان : « لا بُدَّ أنَّ مَشاغِلَكَ كَثيرةٌ . أ تزورُ مُعْظَمَ السُّكّان في القَرْيَةِ ؟»

« إنّي أحاولُ أنْ أزورَهمْ كُلَّهُمْ . وَأعْتَقِدُ أنَّ على واعِظِ القَرْيَةِ أنْ يَعْرِفَ كُلَّ امْرِئٍ يَعيشُ فيها ، فَهذا شَطْرٌ مُهِمٌّ جداً مِنْ عَمَلِهِ . وَأنا لَمْ آتِ لِزيارَتِكِ أنْتِ وَالسَّيِّدِ تشابْمان قَبْلَ اليَوْمِ لأنَّني أعْرِفُ كَمْ أنْتُما مَشْغولان .»

وَفي أثْناءِ تناوُلِنا الشّايَ رُحْنا نَتَجاذَبُ أطْرافَ الحَديثِ عَنِ القَرْيَةِ وَتاريخِها . وَكانَ السَّيِّدُ بارْنز يَعْرِفُ الكَثيرَ عَنِ الأُسَرِ القَديمَةِ ، وَطَفِقَ يَرْوي لَنا قِصَصاً مُمْتِعَةً عَنِ الماضي . وَكانَ يَعْرِفُ تاريخَ بُيوتِ القَرْيَةِ وَمَزارِعِها . وَقَدْ أحْبَبْتُهُ أنا وَجُوان ، فَهُوَ رَجُلٌ حُلْوُ المَعْشَرِ ، يُحِبُّ القَرْيَةَ وَسُكّانَها . وَكانَ يَبْدو عَلَيْهِ أنَّهُ إنْسانٌ طَيِّبٌ وَرَقيقٌ ، وَواعِظٌ بارِعٌ .

وَلَمّا فَرَغْنا مِنْ تَناوُلِ الشّاي مَضَيْنا إلى الحَديقَةِ . وَكانَ السَّيِّدُ بارْنز يَعْرِفُ الكَثيرَ عَنِ الحَدائِقِ كَما كانَ عالِماً في التّاريخِ . وَقَدْ أشادَ بِالتَّغَيُّراتِ الَّتي أحْدَثْناها مِمّا أفْعَمَنا بِالسُّرورِ ، فَأصْحابُ الحَدائِقِ يُحِبّونَ دائِماً الحَديثَ عَنْ حَدائِقِهِمْ . وَبَدا عَلَيْهِ الإعْجابُ أيْضاً بِالعَمَلِ الَّذي عَمِلْناهُ ، فَزادَ هذا مِنْ سُرورِنا ، وَجَعَلَنا نُحِبُّ الرَّجُلَ أكْثَرَ وَأكْثَرَ .

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ اسْتَأْذَنَنا في الانْصِرافِ ، فَذَهَبْنا مَعَهُ لِتَوْديعِهِ عِنْدَ بابِ البَيْتِ .

سَألَنا السَّيِّدُ بارْنز قَبْلَ أنْ يَنْصَرِفَ : « هَلْ تَعْرِفانِ مِنْ أيْنَ لِمَنْزِلِكُما هذا الاسْمُ الغَريبُ ؟»

أجابَتْ جُوان : « لا ، لا نَعْرِفُ . وَلَقَدْ كُنْتُ أتَساءَلُ : أ تَعْرِفُ أنْتَ ذلِكَ ؟»

قالَ السَّيِّدُ بارْنز : « لَقَدْ بَناهُ رَجُلٌ يُدْعى ساموِيز . وَقَدْ جَرَتِ العادَةُ في الرِّيفِ عَلى أنْ تُسَمّى الدّارُ بِاسْمِ مَنْ شَيَّدَها ، وَدارُكُما هذِهِ قَدْ شَيَّدَها رَجُلٌ يُدْعى إلِيْجا ساموِيز مُنْذُ ثَلاثِمِئَةِ سَنَةٍ تَقْريباً . وَقَدْ بَناها لِنَفْسِهِ ، فَقَدْ كانَ رَجُلاً ثَرِيًّا ، وَكانَ أوَّلَ مَنْ عاشَ هُنا .»

سَأَلْتُهُ : « هَلْ كانَتْ لَهُ أُسْرَةٌ ؟»

« لا ، بَلْ عاشَ هُنا ، بِلا زَوْجَةٍ وَلا وَلَدٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ سِوى خادِمٌ مُسِنٌّ يَقومُ بِحاجاتِهِ .»

سَأَلَتْهُ جُوان : « ماذا حَدَثَ عِنْدَما ماتَ إِلَيْجا سامْويز هذا ؟»

« لَقَدْ بيعت دارُهُ ، وَلَمْ يَسْكُنْها مُنْذُ وَفاتِهِ أَحَدٌ بِهذا الاسْم ، لَكِنَّكُما اشْتَرَيْتُما دارَهُ وَلا يَزالُ اسْمُها « سامْويز » وَأَرى أَنَّهُ اسْمٌ لَطيفٌ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

وَكانَ رَأْيُنا مُماثِلاً لِرَأْيِهِ ، فَوافَقْناهُ عَلى ما قالَ ، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ شَيْئًا آخَرَ .

قُلْتُ : « يا سَيِّدُ بارْنز ، ثَمَّةَ مُهِمَّةٌ أُخْرى ضَخْمَةٌ أَمامَنا عَلَيْنا أَنْ نَقومَ بِها في الحَديقَةِ . أُنْظُرْ إِلى هذِهِ الشَّجَرَةِ .» وَأَشَرْتُ إِلى شَجَرَةِ دَرْدارٍ قائِمَةٍ بِالقُرْبِ مِنْ جِدارِ الدّارِ ، وَكانَتْ بِارْتِفاعِ الدّارِ ذاتِها ، وَتَكادُ أَغْصانُها تُلامِسُ نافِذَةَ غُرْفَةِ النَّوْمِ .

قُلْتُ : « لا بُدَّ أَنْ نَقْطَعَها ، فَإِنَّها جِدُّ قَريبَةٍ مِنَ الدّارِ ، وَسَوْفَ تُشَكِّلُ خَطَرًا عِنْدَما تَبْدَأُ رِياحُ الشِّتاءِ في الهُبوبِ .»

وَقَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ السَّيِّدُ بارْنز فَمَهُ بِكَلِمَةٍ قالَتْ جُوان : « لا

يا هنري! لَقَدْ ناقَشْنا هذِهِ المَسْأَلَةَ مِنْ قَبْلُ .» ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلى الرَّجُلِ قائِلَةً : « قُلْ لَهُ إِنَّهُ مُخْطِئٌ يا سَيِّدُ بارْنز . إِنَّها شَجَرَةٌ جَميلَةٌ قَوِيَّةٌ وَسَليمَةٌ ، وَمِنَ العارِ أَنْ نَقْطَعَها .»

أَمّا بارْنز فَراحَ يَتَطَلَّعُ إِلى الشَّجَرَةِ طَويلاً ، وَبَدا أَنَّهُ حائِرٌ فيما يَقولُ. وَأَخيرًا تَحَدَّثَ إِلَيَّ بِبُطْءٍ قائِلاً : « يَجِبُ أَنْ أَقولَ إِنَّني أُوافِقُ زَوْجَتَكَ عَلى أَنَّها شَجَرَةٌ جَميلَةٌ ، وَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّها خَطِرَةٌ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تُقَلِّمَ تِلْكَ الأَغْصانَ العُلْيا إِذا كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّها مُفْرِطَةٌ في الطّولِ ، وَلَكِنْ إِذا أَخَذْتَ بِنَصيحَتي فاتْرُكِ الشَّجَرَةَ كَما هِيَ . لَقَدْ كانَتْ هُنا قَبْلَ أَنْ يَبْنِيَ إِلَيْجا سامْويز الدّارَ .»

قُلْتُ : « لَكَ ذَلِكَ . لَنْ نَتَعَجَّلَ عَمَلَ شَيْءٍ ، وَلَسَوْفَ نَنْتَظِرُ حَتّى يَحِلَّ الشِّتاءُ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ قَرارَنا .»

جاءَ الشِّتاءُ مُتَأَخِّرًا تِلْكَ السَّنَةَ ، وَتَبِعَ الصَّيْفَ الطَّويلَ خَريفٌ دافِئٌ جافٌّ . وَكانَ شُغْلُنا في الحَديقَةِ مَصْدَرَ سَعادَةٍ جَمَّةٍ لَنا ، وَلَمْ أُفَكِّرْ في شَجَرَةِ الدَّرْدارِ في أَثْناءِ تِلْكَ الأَيّامِ الطَّويلَةِ .

وَبَعْدَها ، في أَوائِلِ شَهْرِ نوفمبر ، شَرَعَتِ الرِّياحُ تَهُبُّ مَصْحوبَةً بِالمَطَرِ . لَقَدْ أَصْبَحْنا في فَصْلِ الشِّتاءِ ، وَكُنّا نَجْلِسُ في غُرْفَةِ جُلوسِنا المُريحَةِ أَثْناءَ النَّهارِ ، نُطالِعُ وَنَسْتَمِعُ إِلى الموسيقى وَالإِذاعَةِ .



وَفي المساءِ كُنّا نَتَناوَلُ عَشاءَنا وَنأوي إلى الفِراشِ مُبكِّرين . وَكُنْتُ في بَعْضِ الأحْيان ، في النَّهار ، أَلْبسُ مِعْطَفَ المطَرِ وَأَدْخُلُ الحَديقَةَ، وَلَمْ يَكُنْ في مَقْدوري أنْ أقومَ بِأيِّ عَمَلٍ فيها ، وَلكِنّي كُنْتُ أتأمَّلُ شَجَرَةَ الدَّرْدارِ الَّتي كُلَّما هَبَّتِ الرّيحُ بِقُوَّةٍ جَعَلَتْ أغْصانَها تَهْتَزُّ . وَكانَتْ هذِهِ الأغْصانُ تُشْبِهُ الأذْرُعَ عِنْدَما تَتَحَرَّكُ في الهَواءِ عالِيًا فَوْقَ رَأسي ، وَكانَتْ تَبْدو كأنَّما تَبْعَثُ إلَيَّ بِرِسالَةٍ لَمْ أكُنْ أسْتَطيعُ أنْ أفْهَمَ رُموزَها . وَكُنْتُ أحْيانًا أقِفُ هُناكَ مُدَّةً طَويلَةً أُحَدِّقُ إلى الشَّجَرَةِ مُحاوِلاً اسْتِكْناهَ سِرِّها .

وَذاتَ يَوْمٍ ، بَعْدَ أنْ قَضَيْتُ مُدَّةً أطْوَلَ مِنَ المُعْتادِ بِجِوارِها ، نادَتْني جُوان مِنْ داخِلِ البَيْتِ قائِلَةً : « هَنْري ، ماذا تَفْعَلُ عِنْدَكَ تَحْتَ المطَرِ ؟ إنَّ الماءَ سَيُبَلِّلُ ثِيابَكَ .»

أجَبْتُها : « إنّي قادِمٌ يا عَزيزَتي .»

لكِنَّني قَبْلَ أنْ أعودَ إلى البَيْتِ أحْضَرْتُ مِنْشارِيَ الكَبير وَتَسَلَّقْتُ الشَّجَرَةَ ، فَقَطَعْتُ الغُصْنَيْنِ القَريبَيْنِ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَةِ نَوْمِنا . وَكانَ السَّيِّدُ بارْنز مُصيبًا ؛ فالشَّجَرَةُ قَوِيَّةٌ وَسَليمَةٌ ، وَلا داعِيَ لِقَطْعِها ، بَيْدَ أنّي شَعَرْتُ بِالأمانِ أكْثَرَ بَعْدَ قَطْعِ هذَيْنِ الغُصْنَيْنِ .

وَأخْبَرْتُ جُوان بِما فَعَلْتُ فابْتَسَمَتْ قائِلَةً : « إنَّهُ لَيُسْعِدُني أنَّكَ

تُوافِقُني على رَأْيِي يا هَنْري ، فالشَّجَرَةُ لَيْسَتْ خَطِرَةً . وَالآنَ اخْلَعْ مِعْطَفَكَ المُبْتَلَّ وَتناوَلْ فِنْجانًا مِنَ القَهْوَةِ .»

خَلَعْتُ المِعْطَفَ ، وَجَلَسْنا مُبْتَهِجَيْنِ أمامَ مِدْفَأَةِ حُجْرَةِ الجُلوس . وَكُنّا سَعيدَيْنِ لأنَّنا كُنّا مُتَّفِقَيْنِ ، فَقَدْ حُلَّتْ مُشْكِلَةُ شَجَرَةِ الدَّرْدارِ .

وَفي أواخِرِ نوفمبِر ازْدادَتِ العَواصِفُ سوءاً ، وَفي كُلِّ يَوْم كانَتِ الرِّيحُ تَزْدادُ شِدَّةً حَتّى إذا سَكَنَتِ انْهَمَرَ المَطَرُ بِشِدَّةٍ ، ثُمَّ عادَتْ تَهُبُّ مِنْ جَديدٍ . وَكُنّا نَرْقُدُ في فِراشِنا لَيْلاً وَنُصْغي إلى العَواصِفِ ، إلى أنْ نَسْتَغْرِقَ في النَّوْم ، وَعَويلُ الرِّيحِ يُدَوّي في آذانِنا ، وَنَسْمَعُهُ في أحْلامِنا .

وَفي الثَّلاثينَ مِنْ شَهْرِ نوفمبِر – وَهُوَ يَوْمٌ لا أنْساهُ – صَحَوْتُ في مُنْتَصَفِ اللَّيْل ، وَكانَ المِصْباحُ المَوْضوعُ عَلى المِنْضَدَةِ المُجاوِرَةِ لِفِراشِ جُوان مُضاءً ، وَكانَتْ هِيَ جالِسَةً في الفِراش .

سَأَلْتُها : « ماذا بِكِ ؟ أ لا تَسْتَطيعينَ النَّوْمَ ؟»

« اُصْمُتْ ! اِسْمَعْ !»

رَقَدْتُ ساكِناً وَأَرْهَفْتُ السَّمْعَ ، فَلَمْ أَسْمَعْ سِوى صَفيرِ الرِّيح .

سَأَلْتُها ثانِيَةً : « ماذا بِكِ ؟ مِمَّ أنْتِ خائِفَةٌ ؟»

« ثَمَّةَ ضَجَّةٌ لا أَسْتَطيعُ سَماعَها الآنَ . وَلكِنَّها أيْقَظَتْني مِنْ نَوْمي . كانَ ثَمَّةَ شَخْصٌ ما يَنْقُرُ على النّافِذَةِ .»

قُلْتُ : « يا عَزيزَتي جُوان ، لا تكوني ساذَجَةً ! لَقَدْ كُنْتِ تَحْلُمينَ . اُرْقُدي وَنامي ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ ما يُخيفُ .»

« أنا لَسْتُ ساذَجَةً يا هَنْري ! لَقَدْ سَمِعْتُهُ بِوُضوح . ثَمَّةَ شَخْصٌ أَوْ شَيْءٌ ما يَنْقُرُ عَلى تِلْكَ النّافِذَةِ ، وَصَوْتُ النَّقْرِ أعْلى مِنْ صَفيرِ الرِّيح .»

قُمْتُ مِنْ فِراشي قائِلاً : « إنّي نازِلٌ إلى المَطْبَخِ وَسَأُعِدُّ لَكِ شَراباً ساخِناً . إنَّ تَوَتُّرَ أعْصابِكِ يَحولُ بَيْنَكِ وَبَيْنَ النَّوْم ، وَسَتَشْعُرينَ بِالرّاحَةِ بَعْدَ أنْ تَشْرَبي كوباً دافِئاً مِنَ اللَّبَن .»

وَقَبْلَ أنْ أفْتَحَ بابَ غُرْفَةِ النَّوْم نادَتْني ، وَقالَتْ لي بِصَوْتٍ مُفْعَمٍ بِالخَوْفِ : « أنا قادِمَةٌ مَعَكَ يا هَنْري . لا تَتْرُكْني هُنا وَحْدي ، لا ...» وَلَمْ تُكْمِلْ عِبارَتَها . وَكانَ وَجْهُها شاحِباً ، وَأَشارَتْ بِإِصْبَعِها إلى النّافِذَةِ .

في هَذِهِ المَرَّةِ سَمِعْتُ النَّقْرَ هُناكَ عَلى نافِذَةِ غُرْفَةِ النَّوْم ، وَكانَ بَطيئاً وَشَديداً ، وَكانَ صَوْتُهُ عالِياً حَتّى إنَّهُ طَغى عَلى صَفيرِ الرِّيح .

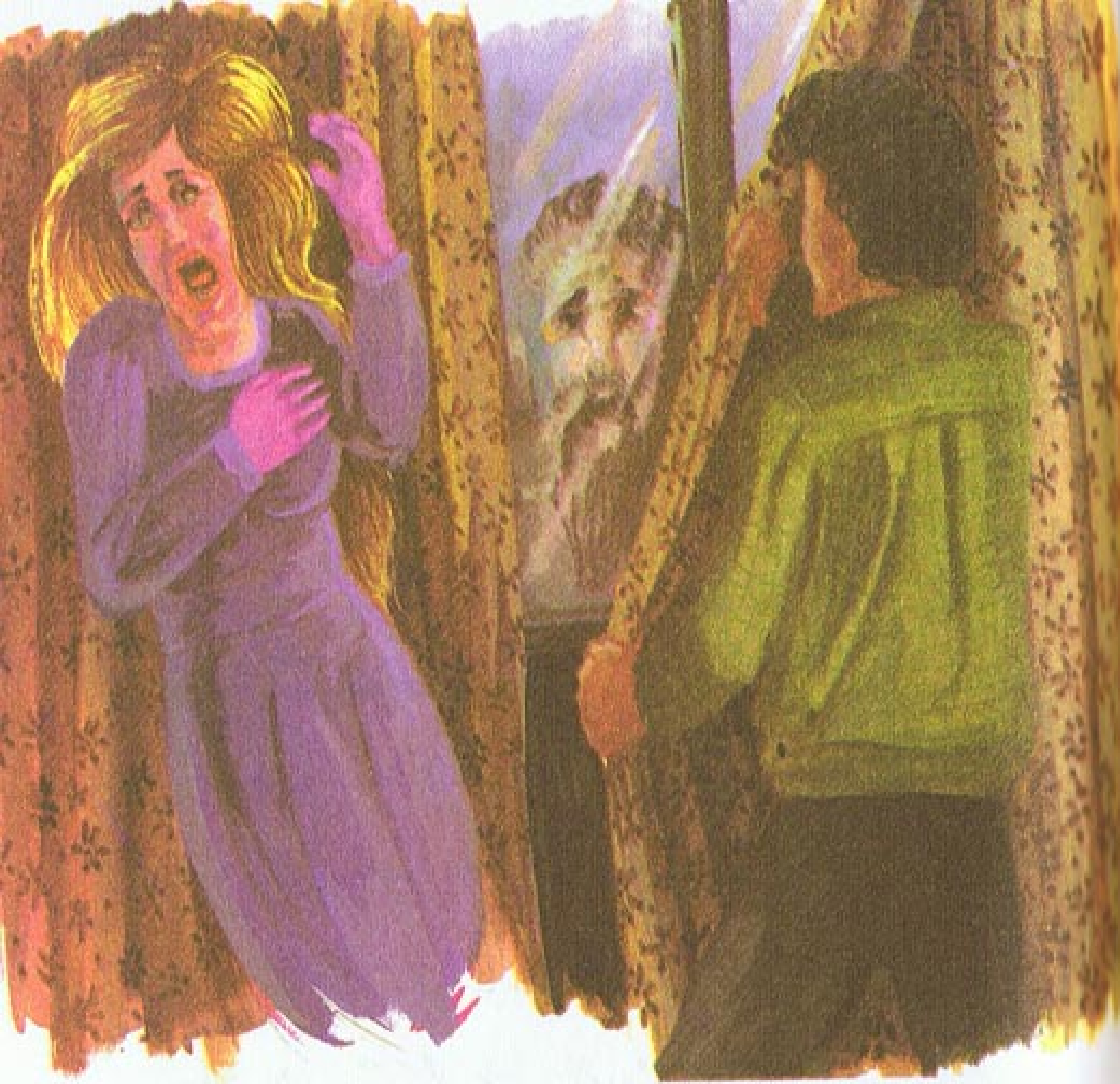
وَذَهَبْتُ إلى النّافِذَةِ ثُمَّ توقَّفْتُ ، فَقَدْ تَتابَعَتِ النَّقَراتُ بِصَوْتٍ أعْلى مِنْ ذي قَبْلُ . وَشَعَرْتُ بِالخَوْفِ ، وَلَمْ أجْرُؤْ عَلى إزاحَةِ السَّتائِرِ وَبِالتّالي على النَّظَرِ مِنَ النّافِذَةِ . لَقَدْ خَشيتُ أنْ أرى شَيْئاً يُثيرُ في نَفْسي الرُّعْبَ .

وَبَيْنَما أنا واقِفٌ هُناكَ عادَتْ جُوان تَتَكَلَّمُ ، فَقالَتْ : « لا تَخَفْ يا هَنْري . إنَّني أعْرِفُ ما هذا ، إنَّها الأغْصانُ الطَّويلَةُ تَخْبِطُ على النّافِذَةِ . إنَّ الرّيحَ تَهُبُّ بِعُنْفٍ ، وَهِيَ تَهُزُّ الأغْصانَ إلى أعْلى وَإلى أسْفَلُ . »

وَلكِنَّها نَسِيَتْ أنَّني قَدْ قَطَعْتُ غُصْنَيْنِ بِشَكْلٍ لا يَجْعَلُهُما يَصِلانِ إلى النّافِذَةِ . وَكُنْتُ أعْرِفُ أنَّ الأغْصانَ لَيْسَتْ سَبَبَ هذا الصَّوْتِ المُرْعِبِ .

وَقَبْلَ أنْ أذَكِّرَها بِتِلْكَ الحَقيقَةِ أزاحَتْ هِيَ السَّتائِرَ ، ثُمَّ نَدَّتْ عَنْها صَرْخَةٌ كادَ قَلْبي يَتَوَقَّفُ مَعَها عَنِ النَّبْضِ .

كانَ ثَمَّةَ وَجْهٌ يَتَطَلَّعُ مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ . وَكانَ وَجْهَ رَجُلٍ عَجُوزٍ . وَكانَ شَعْرُهُ الأبْيَضُ الطَّويلُ يَتَطايَرُ مَعَ الرّيحِ ، وَقَدْ ألْصَقَ رَأسَهُ بِزُجاجِ النّافِذَةِ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ عالِياً وَأخَذَ يَخْبِطُ بِهِما على النّافِذَةِ.



وَتَقَدَّمْتُ خُطْوَةً وَأنا أصيحُ : « بِاللهِ عَلَيْكِ ، شُدّي السَّتائِرَ بَيْنَكِ وَبَيْنَهُ ! »

وَشَدَدْتُ السَّتائِرَ فَوْقَ زُجاجِ النّافِذَةِ ، وَالْتَفَتُّ إلى جُوان ، الَّتي تَهالَكَتْ عَلى الفِراشِ وَأخْفَتْ وَجْهَها بَيْنَ كَفَّيْها ، فَأخَذْتُها بَيْنَ ذِراعَيَّ ، قائِلاً : « هَيّا بِنا نَذْهَبْ إلى المَطْبَخِ . إنَّنا لا يُمْكِنُنا البَقاءُ في

هَذِهِ الغُرْفَةِ . لا ، لا يُمْكِنُنا ذَلِكَ وَهَذا الوَجْهُ وراءَ النّافِذَةِ .»

وَوَضَعَتْ يَدَها في يَدي ، وَسِرْتُ مَعَها حَتّى البابِ .

قالَتْ : « عَيْناهُ يا هَنْري ! هَلْ رَأَيْتَ عَيْنَيْهِ ؟ لَقَدْ كانَتا عَيْنَيْنِ حَزِينَتَيْنِ ... حَزِينَتَيْنِ ! هَذا فَظيعٌ يا هَنْري ! إِنَّهُ شَبَحٌ حَزينٌ ذَلِكَ الَّذي شاهَدْناهُ !»

وَطَلَعَ النَّهارُ ، وَسَكَنَتِ الرّيحُ . وَكانَ الصَّباحُ بارِداً وَمُشْرِقاً ، حَتّى إذا حَلَّتِ السّاعَةُ التّاسِعَةُ اتَّصَلْتُ تليفونيًّا بِالسَّيِّدِ بارْنز فَجاءَ في الحال ، وَتَناوَلَ القَهْوَةَ مَعَنا وَهُوَ يَسْتَمِعُ إلى قِصَّتِنا . وَعِنْدَما فَرَغْنا وَجَّهَ إِلَيْنا بَعْضَ الأَسْئِلَةِ :

« أ تَقولان وَجْهَ رَجُلٍ عَجوزٍ ؟»

أَوْمَأْتُ بِرَأْسي بِالإِيجابِ .

« أ لَهُ شَعْرٌ طَويلٌ أَبْيَضُ ؟»

« نَعَمْ .»

« هَلْ كانَ يَبْدو عَلَيْهِ الغَضَبُ ؟ هَلْ حاوَلَ إِفْزاعَكُما ؟»

وَأَجابَتْ جُوان عَنِ السُّؤالِ قَبْلَ أَنْ أَنْبِس بِبِنْتِ شَفَةٍ : « لا يا سَيِّدُ بارْنز . إِنَّني موقِنَةٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غاضِباً . وَقَدْ أَفْزَعَنا ، وَلَكِنْ دونَ قَصْدٍ . وَكانَ وَجْهُهُ حَزيناً لِلْغايَةِ ، وَبَدا وَكَأَنَّهُ يَسْأَلُنا العَوْنَ . إِنَّني أَشْعُرُ بِالخَجَل لأَنَّنا لَمْ نُقَدِّمْ لَهُ العَوْنَ ، إِذْ كُنّا مُرْتَعِبَيْنِ .»

أَجابَ بارْنز بِمُنْتَهى اللُّطْفِ : « لا تُنْحيا على نَفْسَيْكُما بِاللائِمَةِ!» ثُمَّ قالَ مُخاطِباً زَوْجَتي : « مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ تخافا ، وَأَيُّ إِنْسان في مَكانِكُما سَيَخافُ ، وَلَكِنّي أَعْتَقِدُ أَنَّكُما تَسْتَطيعانِ مُساعَدَتَهُ .»

سَأَلْتُهُ : « ما هُوَ السَّبيلُ إلى ذلِكَ ؟ يَبْدو أَنَّكَ تَعْرِفُ شَيْئاً عَنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تُخْبِرَنا بِهِ . وإذا تَكَرَّرَ هَذا المَشْهَدُ مَرَّةً ثانِيَةً فَلَنْ نَسْتَطيعَ البَقاءَ في هَذِهِ الدّارِ .»

قالَ : « أَظُنُّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَكْشِفَ لَكُما السِّرَّ . لَقَدْ أَخْبَرْتُكُما بِأَنَّ إِلَيْجا ساموِيز عاشَ هُنا مَعَ خادِمٍ عَجوزٍ ، وَلَمْ أُكْمِلْ لَكُما القِصَّةَ، وَعَلَيَّ أَنْ أُكْمِلَها الآنَ : في إِحْدى اللَّيالي قَتَلَ اللُّصوصُ إِلَيْجا ساموِيز وَسَرَقوا كُلَّ نُقودِهِ ، وَلَمْ يُقْبَضْ على اللُّصوص ، وَاتُّهِمَ الخادِمُ روبِرْت فُورِسْتر بِمُساعَدَتِهِمْ ؛ فَدافَعَ الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ بَريءٌ ، وَأَنَّهُ قَضى لَيْلَتَهُ كُلَّها نائِماً وَلَمْ يَسْمَعْ شَيْئاً . وَلَكِنَّهُ اتُّهِمَ

بِأَنَّهُ أتاحَ لِلُّصوص التَّسَلُّلَ إلى الدَّارِ . وَكانَ رُوبِرْت رَجُلاً مُعْدِماً لا أَهْلَ لَهُ وَلا أَصْدِقاءَ ، فَلَمْ يُصَدِّقْ أَحَدٌ أَنَّهُ بَرِيءٌ . وَقَدْ حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ فَظيعٌ !»

قالَتْ جُوان بِنَبْرَةٍ هادِئَةٍ : « أَكْمِلْ مِنْ فَضْلِكَ . قُلْ لَنا كُلَّ شَيْءٍ .»

قالَ : « أَجَلْ ، لا بُدَّ أَنْ أَحْكِيَ لَكُما كُلَّ شَيْءٍ ، بَيْدَ أَنَّها قِصَّةٌ مُرْعِبَةٌ : لَقَدْ قُتِلَ روبِرْت فُورسْتر في حَديقَةِ « سامويز » ، وَهُوَ يُكَرِّرُ القَوْلَ بِأَنَّهُ بَريءٌ ، لَكِنَّهُمْ شَنَقوهُ على شَجَرَةِ الدَّرْدارِ . لَقَدْ هَرَبَ اللُّصوصُ ، وَلَكِنَّ إنساناً بَريئاً شُنِقَ .»

سَأَلْتُهُ : « أَ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ كانَ بَريئاً ؟»

« أَعْتَقِدُ ذَلِكَ الآنَ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ قَدِ اتُّهِمَ ظُلْماً . وَيَغْلِبُ على ظَنّي أَنَّهُ كانَ يُحاوِلُ إِخْبارَكُما بِأَنَّهُ بَريءٌ ، وَأَنَّهُ ظَهَرَ لَكُما اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ يَطْلُبُ العَوْنَ .»

« لِماذا ظَهَرَ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ؟»

« كانَ ذَلِكَ في الثَّلاثينَ مِنْ شَهْرِ نُوفَمْبِر ، يَوْمَ شُنِقَ رُوبِرْت فُورسْتر مُنْذُ ثَلاثِمِئَةِ عامٍ .»

سَأَلَتْهُ جُوان : « كَيْفَ يُمْكِنُنا مُساعَدَتُهُ ؟»

« بِأَنْ نُبَيِّنَ لَهُ أَنَّنا نُصَدِّقُهُ . عَلَيْنا أَنْ نُعْلِمَهُ بِأَنَّنا نَعْرِفُ أَنَّهُ بَريءٌ.»

« وَلَكِنْ كَيْفَ ؟»

« اِتْبَعاني .»

وَاصْطَحَبَنا السَّيِّدُ بارْنز إلى الحَديقَةِ حتّى شَجَرَةِ الدَّرْدار ، وَقالَ : « لَقَدْ دُفِنَ رُوبِرْت فُورسْتر هُنا ، وَهَذا قَبْرُهُ .»

« هُنا ؟ وَلَكِنَّ هذِهِ لَيْسَتْ مِنْطَقَةَ مَقابِرَ .»

« نَعَمْ ، إِنَّها لَيْسَتْ مِنْطَقَةَ مَقابِرَ . إِنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقوا أَنَّهُ بَريءٌ ؛ لِذا لَمْ يَسْمَحوا بِدَفْنِهِ في مَقْبَرَةٍ ، بَلْ دَفَنوهُ قَريباً مِنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ . وَلَقَدْ دَفَنوهُ حَيْثُ شَنَقوهُ . وَلَكِنَّنا سَنَجْعَلُ مِنْ هذا المَكانِ مَقْبَرَةً هادِئَةً، وَسَوْفَ نُصَلّي مِنْ أَجْلِ رُوبِرْت فُورسْتر .»

وَرَكَعَ بارْنز على الأَرْضِ البارِدَةِ المُبْتَلَّةِ ، وَرَكَعْتُ أَنا وَجُوان مِثْلَهُ وَأَنْشَأَ يُصَلّي مِنْ أَجْلِ رُوبِرْت فُورسْتر فَصَلَّيْنا مَعَهُ . لَقَدْ صَلّى مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الرَّجُلِ البَريءِ ، وَدَعا اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لِخُصومِهِ ، وَقالَ بَعْدَ

ذَلِكَ : « وَالآنَ سَيَسْتَرِيحُ .» ثُمَّ رَجَعْنا إلى البَيْتِ ، الَّذي كانَ يَسودُهُ الهُدوءُ .

سَيّارَةُ
السَّيِّدِ ونْغيت الجَديدَة

سَأَلَ : « كَمْ ثَمَنُها ؟»

وَأَدْهَشَتْهُ الإجابَةُ وَبَعَثَتِ السُّرورَ في نَفْسِهِ ؛ فَلَمْ يَكُنِ الثَّمَنُ رَخيصاً ، لَكِنَّكَ لا تَتَوَقَّعُ أَنْ تَبْتاعَ سَيّارَةً كَبيرَةً قَوِيَّةً بِثَمَن بَخْس . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كانَ الثَّمَنُ أَرْخَصَ مِمّا تَصَوَّرَ .

« أَ تَقولُ إِنَّ عُمْرَها عامٌ واحِدٌ فَقَطْ ؟»

« نَعَمْ ، إِنَّهُ عامٌ واحِدٌ فَقَطْ ، وَنَعْرِفُ الرَّجُلَ الَّذي كانَ يَمْتَلِكُها . لَقَدْ بِعْناهُ إيّاها ، وَها نَحْنُ أولاءِ نَبيعُها لَكَ الآنَ نِيابَةً عَنْهُ ، فَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يَكُفَّ عَنْ قِيادَةِ السَّيّاراتِ . وَكُنّا نَقومُ بِصِيانَتِها مُنْذُ أَنِ اشْتَراها . إِنَّها حَقًّا سَيّارَةٌ جَيِّدَةٌ بِهَذا السِّعْرِ .»

وَفَكَّرَ روجَر مَلِيًّا ، وَانْتَهى إلى أَنَّ صاحِبَ المَتْجَرِ عَلى حَقٍّ . إِنَّها



سَيّارَةٌ جيِّدَةٌ وَسِعْرها مُناسِبٌ ، وَفي مَقْدورِهِ أنْ يَدْفَعَهُ ، فَقال : «سَأشْتَريها ، وَسَأعودُ مِنْ أجْلِ ذَلِكَ مَساءَ الغَدِ ، بَعْدَ أنْ أغادِرَ مَكْتَبي.»

وَما إنْ حَلَّ مَساءُ اليَوْمِ التّالي حَتّى كانَ جالِساً خَلْفَ عَجَلَةِ القِيادَةِ في سَيّارَتِهِ الجَديدَةِ الكَبيرَةِ . وَراحَ يَقودُها بِحِرْصٍ في شَوارِعِ المَدينَةِ . وَسُرْعانَ ما خَلَّفَ الشَّوارِعَ المُزْدَحِمَةَ وَراءَهُ ، وَعِنْدَما بَلَغَ الطُّرُقَ الهادِئَةَ زادَ مِنْ سُرْعَةِ السَّيّارَةِ . وَقَدْ جَعَلَ المُحَرِّكُ القَوِيُّ مِنَ القِيادَةِ مُتْعَةً ، وَغَمَرَتِ المَصابيحُ الأمامِيَّةُ الطَّريقَ أمامَهُ بِالضَّوْءِ لِمَسافَةٍ بَعيدَةٍ . وَكانَ سُرورُ رُوجَر وِنْغيت بِسَيّارَتِهِ الجَديدَةِ بالِغًا ، فَثَمَنُها يُقَدَّرُ بِأكْثَرَ مِمّا دَفَعَهُ بِكَثيرٍ.

وَعِنْدَ تَقاطُعِ الطُّرُقِ كانَ عَلَيْهِ أنْ يَتَوَقَّفَ ؛ إذْ كانَ نورُ الإشارَةِ

أحْمَرَ . وَأشْعَلَ سيجارَةً وَراحَ يَسْتَمِعُ في سَعادَةٍ إلى الموسيقى المُنْبَعِثَةِ مِنْ راديو السَّيّارَةِ .

وَفَجْأةً شَعَرَ بِقَلْبِهِ يَثِبُ هَلَعاً في صَدْرِهِ ؛ فَقَدْ سَمِعَ صَوْتاً هادِئاً ، وَكانَ صَوْتَ امْرَأةٍ ، أوْ هكَذا بَدا لَهُ .

قالَ الصَّوْتُ : « انْعَطِفْ هُنا يَميناً .»

ظَنَّ رُوجَر لِبَعْضِ الوَقْتِ أنَّ الصَّوْتَ انْبَعَثَ مِنَ الرّاديو ، وَكانَ وَحْدَهُ في السَّيّارَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَعِثُ مِنَ الرّاديو سِوى الموسيقى . وَلَمّا تَكَرَّرَ الصَّوْتُ ثانِيَةً أدْرَكَ أنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ عَنِ الرّاديو ، وَلكِنَّهُ كانَ مُوَجَّهاً إلى أذُنِهِ ، وَأنَّهُ جاءَ مِنَ المَقْعَدِ الَّذي بِجانِبِهِ .

وَقالَ الصَّوْتُ مَرَّةً أخْرى : « انْعَطِفْ هُنا يَميناً .»

وَكانَ صَوْتَ امْرَأةٍ شابَّةٍ واضِحاً وَلَطيفاً . وَكانَ مِنَ الوُضوحِ بِحَيْثُ الْتَفَتَ إلى المَقْعَدِ المُجاوِرِ لَهُ ، ظَنّاً مِنْهُ أنَّ شَخْصاً ما يَجْلِسُ عَلَيْهِ ، وَلكِنَّ المَقْعَدَ كانَ شاغِراً . وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ ما يُخيفُ ، وَمَعَ ذلِكَ اسْتَوْلى الخَوْفُ عَلى رُوجَر وِنْغيت .

وَ اقْتَحَمَ صَوْتٌ آخَرُ أفْكارَهُ المُضْطَرِبَةَ ، فَقَدْ كانَ خَلْفَهُ سَيّاراتٌ أخْرى اسْتَبَدَّ الغَضَبُ بِسائِقيها ، فَراحوا يُطْلِقونَ آلاتِ التَّنْبيهِ في

سَيّاراتِهِمْ مُحْدِثينَ ضَجيجاً فَظيعاً .

وَنَظَرَ روجَر إِلى إِشارَةِ المُرورِ ، فَرآها قَدْ تَحَوَّلَتْ إِلى اللَّوْنِ الأَخْضَرِ. وَكانَ واقِفاً بِسَيّارَتِهِ في طَريقِ جَميعِ السَّيّاراتِ مِنْ خَلْفِهِ فَراحَ سائِقوها يَسْتَحِثّونَهُ على التَّحَرُّكِ . وَقادَ سَيّارَتَهُ بِبُطْءٍ ، فَانْطَلَقوا مِنْ جانِبِهِ الواحِدَ تِلْوَ الآخَرِ، وَكُلَّما مَرَّ بِجانِبِهِ سائِقٌ أَطْلَقَ آلَةَ التَّنْبيهِ اسْتِياءً مِنْهُ .

وَلَمْ يَكُنْ روجَر مُلْتَفِتاً لِلسّائِقينَ الغاضِبينَ أَوْ لآلاتِ التَّنْبيهِ العالِيَةِ في سَيّاراتِهِمْ . وَلَكِنَّ نَبْرَةَ ذَلِكَ الصَّوْتِ الهادِئِ لا تَزالُ تَرِنُّ في سَمْعِهِ : « انْعَطِفْ هُنا يَميناً .» وَشَرَعَ يَتَساءَلُ عَنِ الطَّريقِ المُتَفَرِّعِ إِلى اليَمينِ ، وَكانَ يَبْدو أَنَّهُ يُفْضي إِلى شارِعٍ هادِئٍ ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ سارَ فيهِ مِنْ قَبْلُ . لَقَدْ كانَ الطَّريقُ المُؤَدّي إِلى بَيْتِهِ هُوَ هَذا الطَّريقُ المُمْتَدُّ أَمامَهُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَن انْعَطَفَ يَميناً عِنْدَ تَقاطُعِ الطُّرُقِ .

وَكانَتْ زَوْجَتُهُ جِدَّ مَسْرورَةٍ بِالسَّيّارَةِ الجَديدَةِ ؛ إِذْ كانَتْ تَرى أَنَّها أَكْثَرُ راحَةً مِنْ سَيّارَتِهِما السّابِقَةِ . وَتَطَلَّعَتْ إِلى أَنْ يَقوما بِرِحْلَةٍ بِها في عُطْلَةِ نِهايَةِ الأُسْبوعِ .

قالَتْ : « سَتَصْحَبُنا أُمّي حَيْثُ نَمْضي إِلى شاطِئِ البَحْرِ وَنَتَناوَلُ

طَعامَنا هُناكَ في الهَواءِ الطَّلْقِ . إِنَّها سَتَكونُ رِحْلَةً مُمْتِعَةً ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ يا روجَر ؟»

وَلَمْ يُجِبْها ، فَقَدْ كانَ يُحَمْلِقُ إِلى السَّيّارَةِ الجَديدَةِ مِنْ خِلالِ نافِذَةِ غُرْفَةِ الجُلوسِ .

وَسَأَلَتْهُ مَرَّةً أُخْرى : « أَلَنْ تَكونَ رِحْلَةً مُمْتِعَةً ؟»

« ماذا ؟ آه .. بَلى .. بِلا شَكٍّ .. سَنَتَمَتَّعُ بِها .»

« أَنا لا أَفْهَمُكَ يا روجَر ، ماذا بِكَ ؟ لَقَدِ اشْتَرَيْتَ لِتَوِّكَ هَذِهِ السَّيّارَةَ البَديعَةَ ، وَلَكِنَّكَ لا تَبْدو مَسْروراً عَلى الإِطْلاقِ ، وَتَكادُ لا تَسْمَعُ كَلِمَةً واحِدَةً مِمّا أَقولُهُ لَكَ .»

قالَ : « إِنّي آسِفٌ يا عَزيزَتي ، فَالحَقيقَةُ أَنَّ لَدَيَّ مُهِمَّةً صَعْبَةً في المَكْتَبِ ، وَكُنْتُ أُفَكِّرُ فيها ، وَلا بُدَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلى عَمَلي مُبَكِّراً في صَبيحَةِ الغَدِ ؛ لِذا يَجِبُ أَنْ أَنامَ اللَّيْلَةَ مُبَكِّراً ، فَأَنا في حاجَةٍ إِلى نَوْمٍ عَميقٍ .»

وَلَمْ يَذْكُرْ لَها شَيْئاً عَنِ الصَّوْتِ الَّذي سَمِعَهُ وَهُوَ في السَّيّارَةِ الجَديدَةِ .



وَمَضى ، وَهُوَ في طَريقِهِ إلى مَقَرِّ عَمَلِه ، لِيَزورَ صَديقَهُ بِل هاربَر، الَّذي كانَ يَشْتَغِلُ مُحَرِّراً في إحْدى الصُّحُفِ ، وَهُوَ لَيْسَ مِنْ أولئِكَ النّاس الَّذينَ يَدْهَشونَ بِسُرْعَةٍ لأيِّ شَيْءٍ غَريبٍ يَحْدُثُ ، فَأنْصَتَ بِهُدوءٍ لِقِصَّةِ روجَر ثُمَّ سَألَهُ : « هَلْ تَعْرِفُ ذلكَ الشّارِعَ المُتَفَرِّعَ يَميناً عِنْدَ تَقاطُعِ الطُّرُقِ ؟»

« لا أعْرِفُهُ .»

« إنَّهُ شارِعٌ ضَيِّقٌ هادِئٌ ، عَلى جانِبَيْهِ بِضْعُ أشْجار وَبَعْضُ المَنازِلِ اللَّطيفَةِ ، وَاسْمُهُ طَريقُ مونْماوث .»

« أ ذَهَبْتَ إلَيْهِ يا بِل ؟»

أجابَ بِل : « مَرَّةً واحِدَةً ، وَكانَ ذَلِكَ مُنْذُ عام تَقْريباً .»

« إنَّكَ تُصَدِّقُني ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ تُصَدِّقُ أنَّني سَمِعْتُ ذَلِكَ الصَّوْتَ ؟»

« إنَّني موقِنٌ مِن اعْتِقادِكَ في أنَّكَ سَمِعْتَهُ ، وَهَذا هُوَ المُهِمُّ .»

وَنَهَضَ بِل وَاتَّجَهَ إلى خِزانَةٍ وَأخْرَجَ مِنْها جِهازَ تَسْجيل صَغيراً وَسَلَّمَهُ لِروجَر قائِلاً : « اِحْمِلْ هَذا الجِهازَ مَعَكَ في السَّيّارَةِ ، وَأنْتَ

في طَريقِ عَوْدَتِكَ إلى مَنْزِلكَ اللَّيْلَةَ ، وَأدِرْهُ قَبْلَ وُصولِكَ إلى تَقاطُعِ الطُّرُقِ ، ثُمَّ أغْلِقْهُ بَعْدَ أنْ تَتَجاوَزَ إشارَةَ المُرورِ ، وَأعِدْهُ إلَيَّ في صَبيحَةِ الغَدِ ، وَسَنَسْتَمِعُ مَعاً إلى الشَّريطِ ، وَلٰكِنْ عِدْني بِألا تَسْمَعَهُ قَبْلَ أنْ تُعيدَهُ إلَيَّ .»

وَأوْمَأَ روجَر مُوافِقاً وَقالَ : « سَأفْعَلُ ما قُلْتَ ، فَإنّي مُحْتاجٌ إلى العَوْنِ يا بِل . فَإنَّ هذا الصَّوْتَ كانَ حَقيقِيّاً ؛ فَقَدْ سَمِعْتُهُ وَبَدا كَما لَوْ كانَ يُريدُ إبْلاغي رِسالَةً . إنَّني لا أعْرِفُ مَضْمونَ تِلْكَ الرِّسالَةِ ، لٰكِنْ ... »

وَابْتَسَمَ بِل قائِلاً : « وَهُوَ كَذٰلِكَ يا روجَر . إنَّني أعْرِفُ أنَّ هٰذا الأمْرَ قَدْ أرْهَقَ أعْصابَكَ ، وَأنا أُصَدِّقُ قِصَّتَكَ هٰذِهِ ، وَسَوْفَ أُساعِدُكَ قَدْرَ اسْتِطاعَتي ، فَنَحْنُ صَديقانِ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ . وَلاتَنْسَ أنْ تَسْتَعْمِلَ جِهازَ التَّسْجيلِ هٰذا في طَريقِكَ إلى دارِكَ ، ثُمَّ أعِدْهُ إلَيَّ غَداً .»

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي وَضَعَ روجَر ، وَهُوَ شاحِبُ الوَجْهِ ، جِهازَ التَّسْجيلِ عَلى مَكْتَبِ بِل ، وَقالَ : « أجَلْ .. لَسْتُ بِحاجَةٍ إلى أنْ تَسْألَني . لَقَدْ سَمِعْتُ الصَّوْتَ بِأُذُني تَماماً كَما سَمِعْتُهُ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، وَلٰكِنْ هَلْ سَمِعَهُ هٰذا الشَّيْءُ ؟» وَأشارَ إلى جِهازِ التَّسْجيلِ.

« إنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمِعَهُ فَلَنْ تُصَدِّقَني ، بَلْ وَسَتَظُنُّ أنَّني اخْتَرَعْتُ هٰذِهِ القِصَّةَ .»

وَأجْلَسَهُ بِل وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « عَلى رِسْلِكَ يا روجَر ، عَلى رِسْلِكَ! أنْتَ في عَجَلَةٍ شَديدَةٍ مِنْ أمْرِكَ . لِنَسْتَمِعْ لِلشَّريطِ ، فَنَحْنُ لا نَعْرِفُ ماذا فيهِ . وَبَعْدَ أنْ نَسْمَعَهُ سَيَكونُ في مَقْدورِنا كَشْفُ السِّرِّ .»

وَفَتَحَ جِهازَ التَّسْجيلِ وَأرْجَعَ الشَّريطَ إلى بِدايَتِهِ ، عَلى حينَ جَلَسَ روجَر عَلى حافَةِ مَقْعَدِهِ قَلِقاً ، وَأشْعَلَ سيجارَةً بِعَصَبِيَّةٍ قائِلاً : « إنَّني لَمْ أسْتَعْمِلْ راديو السَّيّارَةِ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، لأنَّني أرَدْتُ أنْ يَكونَ التَّسْجيلُ صافِياً .»

« أحْسَنْتَ ، فَقَدْ نَسيتُ أنْ أقولَ لَكَ ذٰلِكَ ، وَيَسُرُّني أنَّكَ فَطِنْتَ إلى هٰذا .» ثُمَّ أدارَ جِهازَ التَّسْجيلِ فَبَدَأ الشَّريطُ يَدورُ . وَلَمْ يَسْمَعا في البِدايَةِ إلا صَوْتَ المُحَرِّكِ ، ثُمَّ صَوْتَ الإطاراتِ عَلى الطَّريقِ .

قالَ روجَر مُفَسِّراً : « اضْطُرِرْتُ لِفَتْحِ نافِذَةِ السَّيّارَةِ ، فَقَدْ كُنْتُ في حاجَةٍ إلى هَواءٍ مُنْعِشٍ .»

« صَهٍ ! لَقَدْ عَلِمْتُ ما فَعَلْتَهُ .»

ثُمَّ خَفَتَ صَوْتُ المُحَرِّكِ ؛ إذْ كانَتِ السَّيّارَةُ ساعَتَئِذٍ تَسيرُ

بِهُدوءٍ .

« لَقَدْ أبْطأتُ ، إذْ كانَتِ الإشارَةُ حَمْراءَ ، فَكانَ عَلَيَّ أنْ أتوَقَّفَ .»

« اُسْكُتْ يا رُوجَر ! فَلَسْتُ أبْلَهَ كَما تَعْلَمُ ، وَأنا أدْرِكُ ما كانَ يَحْدُثُ .»

أغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَأسْنَدَ ظَهْرَهُ إلى مَقْعَدِهِ وَقَلْبُهُ يَدُقُّ بِسُرْعَةٍ . وَكانَ مُتَوَتِّرَ الأعْصابِ ، بَلْ كانَ مُرْتَعِباً . لَقَدْ خَشِيَ ألا يَنْطِقَ الصَّوْتُ ، أوْ يَكونَ جِهازُ التَّسْجيلِ قَدْ تَعَطَّلَ حينَ أدارَهُ في السَّيّارَةِ ، أوْ يَكونَ ثَمَّةَ خَطَأً قَدْ وَقَعَ وَعِنْدَئِذٍ لَنْ يُصَدِّقَهُ بِل ، وَلَنْ يُصَدِّقَ أنَّهُ سَمِعَ ذَلِكَ الصَّوْتَ ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَنْ يَسْتَطيعَ تَقْديمَ العَوْنِ لَهُ . وَسَيَكونُ لِزاماً عَلى رُوجَر أنْ يَبْدَأ رِحْلَتَهُ إلى مَنْزِلِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَ هُوَ خائِفٌ مِنَ اللَّحْظَةِ الَّتي يَتَكَلَّمُ فيها الصَّوْتُ .

وَلَعَلَّهُ في إحْدى اللَّيالي ، عِنْدَما يَسْمَعُ الصَّوْتَ يَتَكَلَّمُ ، قَدْ يُطيعُ أمْرَهُ ، وَبَدَلاً مِنْ أنْ يُواصِلَ سَيْرَهُ يَنْعَطِفُ يَميناً وَهُوَ لا يَسْتَطيعُ مُخالَفَتَهُ ، وَبَدَلاً مِنْ أنْ يَمْضِيَ إلى دارِهِ سَوْفَ يُطيعُ الصَّوْتَ وَيَقودُ سَيّارَتَهُ إلى الغُموضِ وَالخَطَرِ الكامِنَيْنِ لَهُ في طَريقِ مُونْماوث .

وَقالَ لِنَفْسِهِ : « آهٍ يا إلَهي ! كُنْ في عَوْني وَأنْطِقِ الشَّريطَ الآنَ ؛ حَتّى يُصَدِّقَني بِل ، وَيُساعِدَني . أرْجوكَ يا إلَهي ! إنّي خائِفٌ ...»

وَسَكَتَ صَوْتُ المُحَرِّكِ عَلى الشَّريطِ ؛ إذْ كانَتِ السَّيّارَةُ قَدْ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ الإشارَةِ . وَلِلَحْظَةٍ انْبَعَثَ عَلى الشَّريطِ صَوْتٌ سَمِعَهُ بِصُعوبَةٍ . وَعِنْدَئِذٍ انْبَعَثَ الصَّوْتُ واضِحاً رَقيقاً وَهُوَ يُصْدِرُ ذَلِكَ الأمْرَ المُرْعِبَ المَألوفَ : « انْعَطِفْ هُنا يَميناً ...»

وَصَرَخَ رُوجَر قائِلاً : « أ سَمِعْتَ يابِل ؟ هَلْ تُصَدِّقُني ؟ يَجِبُ أنْ تُصَدِّقَني الآنَ !»

أمّا بِل فَقَدْ أوْقَفَ جِهازَ التَّسْجيلِ ، وَالْتَفَتَ إلى رُوجَر قائِلاً بِهُدوءٍ شَديدٍ : « لَقَدْ سَمِعْتُهُ ، وَأنا أُصَدِّقُكَ يا رُوجَر . إنَّهُ صَوْتُ فَتاةٍ ، وَقَدْ تَوَقَّعْتُ أنْ تَكونَ كَذَلِكَ .»

« ماذا تَعْني ؟»

« لَيْسَ الآنَ يا رُوجَر ، وَسَأوَضِّحُ لَكَ كُلَّ شَيْءٍ فيما بَعْدُ . عِنْدَما تَنْتَهي مِنْ عَمَلِكَ تَعالَ هُنا وَخُذْني مَعَكَ ، فَإنّي سَأصْحَبُكَ في طَريقِ عَوْدَتِكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ .»

*****

وَاجتازَتِ السَّيَّارَةُ الطُّرُقَ المُزدَحِمَةَ ، حتّى إذا ما بَلَغَ رُوجَر الطُّرُقَ الهادِئَةَ زادَ مِنْ سُرْعَةِ سَيَّارَتِهِ . وَكانَ بِل جالِساً بِجِوارِهِ ، وَلَمْ يَنْطِقْ أيٌّ مِنهُما بِكَلِمَةٍ ؛ فَقَدْ كانا مَشْدودَيِ الأعْصابِ .. يَتَرَقَّبانِ .

وَلَمَحا إشارَةَ المُرورِ ، وَقَدْ أضاءَ بِها النّورُ الأخْضَرُ .

سَأَلَ رُوجَر : « ماذا أفْعَلُ إذا بَقِيَ الضَّوْءُ أخْضَرَ ؟ لَقَدْ تَحَوَّلَ إلى الأحْمَرِ في اللَّيْلَتَيْنِ الماضِيَتَيْنِ ، وَبِذَلِكَ اضْطُرِرْتُ إلى التَّوَقُّفِ عِنْدَ مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ .»

« هَذا لَنْ يُشَكِّلَ أيَّ فَرْقٍ ، فَسُرْعانَ ما سَتُكَلِّمُكَ حَتّى إنْ ظَلَّ الضَّوْءُ أخْضَرَ .»

« كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ ؟»

« اُسْكُتْ ! عَلَيْكَ فَقَطْ أنْ تَسْمَعَ وَتُطيعَ .»

وَ أوْشَكا عَلى الاقْتِرابِ مِنْ تَقاطُعِ الطُّرُقِ ، وَكانَ الضَّوْءُ لا يَزالُ أخْضَرَ . وَجَفَّ لُعابُ رُوجَر وَراحَ قَلْبُهُ يَدُقُّ بِعُنْفٍ ، فَنَظَرَ إلى صاحِبِهِ الَّذي كانَ يُحَمْلِقُ أمامَهُ لِيَرْقُبَ الضَّوْءَ الأخْضَرَ .

« اِنْعَطِفْ هُنا يَميناً .» وَكانَ الصَّوْتَ نَفْسَهُ وَلَكِنْ أوْضَحَ وَأقْوى .

وَكانَتْ صاحِبَتُهُ تَعْرِفُ أنَّ أمْرَها سَيُطاعُ .

قالَ بِل : « وَالآنَ هَيّا إلى طَريقِ مُونْماوث ، وَكُنْ حَذِراً وَتَوَقَّعْ أنْ تَحْدُثَ مُشْكِلَةٌ .»

وَلَفَّ رُوجَر عَجَلَةَ القِيادَةِ ، وَانْسابَتِ السَّيّارَةُ الفارِهَةُ في الطَّريقِ الصَّغيرِ الهادِئِ ، وَقَدْ شَكَّلَتْ مَصابيحُ الشّارِعِ بُحَيْراتٍ صَغيرَةً مِنَ الضَّوْءِ في تِلْكَ الظُّلْمَةِ ؛ أمّا الأشْجارُ فَقَدْ ألْقَتْ بِظِلالِها الكَثيفَةِ عَلى واجِهاتِ المَنازِلِ وَفَوْقَ الطَّريقِ .

وَفي الظَّلامِ وَتَحْتَ إحْدى الأشْجارِ كانَتْ ثَمَّةَ فَتاةٌ واقِفَةٌ ، وَما لَبِثَتْ أنْ تَحَرَّكَتْ إلى الأمامِ ، وَقَدْ بَدَتْ في نورِ المَصابيحِ الأمامِيَّةِ لِلسَّيّارَةِ ، فَأمْكَنَهُما أنْ يَتَبَيَّناها بِوُضوحٍ وَهِيَ تَتَلألأُ في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ . وَكانَتْ شابَّةً صَغيرَةً جَميلَةً في نَحْوِ العِشْرينَ أو الخامِسَةِ وَالعِشْرينَ مِنْ عُمْرِها ، وَتَرْتَدي مَلابِسَ الحَفَلاتِ .

وَأخَذَ بِل نَفَساً عَميقاً وَهُوَ يَقولُ : « ها هِيَ ذي ! خُذْ حَذَرَكَ يا رُوجَر ! اِنْتَبِهْ !»

وَألْقَتِ الفَتاةُ بِنَفْسِها عَلى الطَّريقِ أمامَ السَّيّارَةِ ، وَخَبَطَتْ عَجَلَةُ القِيادَةِ رُوجَر في يَدَيْهِ وَهُوَ يَلُفُّها بِقُوَّةٍ ، وَزَعَقَتِ العَجَلاتُ ،

وَارْتَطَمَتِ السَّيَّارَةُ بِعُنْفٍ بِشَجَرَةٍ ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ بِلا حَراكٍ .

وَقَفَزَ رُوجَر مِنَ السَّيَّارَةِ وَراحَ يَصْرُخُ بِصَوْتٍ يَشوبُهُ الجُنونُ : « يا إلَهي ! لَقَدْ دُسْتُها ! قَتَلْتُها يا بِل ! بِل ! أَيْنَ أَنْتَ ؟ أَغِثْني ! »

وَكانَ بِل بِجانِبِهِ ، وَقالَ لَهُ بِنَبَراتٍ هادِئَةٍ : « لا عَلَيْكَ يا رُوجَر وَلا تَخَفْ ، فَأَنْتَ لَمْ تُسَبِّبْ لَها أَيَّ أَذًى . اُنْظُرْ ! إنَّ الطَّريقَ خالٍ . اِهْدَأِ الآنَ وَلا تَنْزَعِجْ ؛ فَإنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . صَدِّقْني . »

« وَلَكِنْ .. أَيْنَ .. أَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُها بِعَيْنَيَّ هاتَيْنِ ، وَكانَتْ واقِفَةً هُناكَ ، وَلا رَيْبَ في أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضًا قَدْ رَأَيْتَها ! وَبَعْدَ ذَلِكَ ... »

« نَعَمْ رَأَيْتُها ، وَشَهِدْتُ ما فَعَلَتْ . لَكِنَّها لَيْسَتْ هُنا الآنَ ، إنَّها في مَكانٍ بَعيدٍ يارُوجَر . اِهْدَأْ ! سَأَجيءُ بِسَيَّارَةِ أُجْرَةٍ وَأَحْمِلُكَ إلى دارِكَ . أَمَّا سَيَّارَتُكَ فَسَتَتَوَلَّى إحْدى وِرَشِ إصْلاحِ السَّيَّاراتِ نَقْلَها ، لأَنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ قِيادَتَها . »

*****

قالَ رُوجَر وَهُوَ يَضَعُ فِنْجانَ قَهْوَتِهِ الفارِغَ عَلى المائِدَةِ : « إنِّي أَشْعُرُ بِتَحَسُّنٍ الآنَ . مِنْ فَضْلِكَ أَخْبِرْنا بِما تَعْرِفُهُ يا بِل . »

وَقالَتْ زَوْجَةُ رُوجَر مُخاطِبَةً بِل : « نَعَمْ يا بِل ، أَوْضِحْ لَنا الأَمْرَ مِنْ فَضْلِكَ . لَقَدْ كانَتْ لَيْلَةً لَيْلاءَ ، وَقَدْ نَجَوْتَ أَنْتَ وَرُوجَر بِأُعْجوبَةٍ . »

قالَ بِل بِهُدوءٍ شَديدٍ : « هَذا صَحيحٌ ، فَقَدْ كانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ نَكونَ في عِدادِ الأَمْواتِ الآنَ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّها كانَتْ تُريدُ أَنْ تَقْتُلَ شَخْصًا ما ، وَلَكِنَّني لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ مَعْرِفَةِ مَنْ تُريدُ قَتْلَهُ ، فَرُبَّما تُريدُ قَتْلَ شَخْصٍ آخَرَ غَيْرِنا . »

« اِسْتَمِرَّ مِنْ فَضْلِكَ . اِسْتَمِرَّ . »

« سَأُحاوِلُ ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ شاقٌّ . إنَّها قِصَّةٌ لَنْ أُفَكِّرَ إطْلاقًا في كِتابَتِها ، فَلَنْ يُصَدِّقَها أَحَدٌ ! وَقَدْ أَخْبَرْتُكَ يا رُوجَر أَنَّني ذَهَبْتُ إلى مُونْماوث مَرَّةً واحِدَةً ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

« بَلى ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تُخْبِرْني بِسَبَبِ ذَهابِكَ إلى هُناكَ . »

« لَمْ أَرَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ أُخْبِرَكَ آنَذاكَ ، أَمَّا الآنَ فَلابُدَّ أَنْ أُخْبِرَكَ . »

وَأَمْسَكَ عَنِ الكَلامِ دَقيقَةً لِيَسْتَغْرِقَ في تَفْكيرٍ عَميقٍ ، ثُمَّ قالَ أَخيرًا : « لَقَدِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَعَرَّفَ عَلى هَذِهِ الفَتاةِ . »

« تعرَّفْتَ عليْها ؟ كيْفَ ؟ ومَنْ هِيَ ؟»

« انْتظِرْ مِنْ فضْلِكَ ، وأصْغِ إليَّ . إنَّ اسْمَها ...» وأمْسكَ بِل عَنِ الكلامِ ، ثُمَّ عادَ يقولُ : « أجَلْ ينْبَغي أنْ أقولَ ، لَقَدْ كانَ اسْمُها كاثْلين هِنْسون ، وقَدْ قُتِلَتْ في طَريقِ مُونْماوث ، ولَمْ تَقْتُلْها أنْتَ يا رُوجَر ، بَلْ قُتِلَتْ مُنْذُ حَوالى عامٍ ، ونَشَرَتِ الصُّحُفُ صورتَها. ولَدى الصَّحيفَةِ الّتي أعْمَلُ فيها صورَةٌ كَبيرَةٌ لها ؛ لِذا فَقَدْ تعرَّفْتُ علَيْها اللَّيْلَةَ .»

« إنَّني لا أذْكُرُ أيَّ شَيْءٍ عَنْها .»

« ولَمْ تذْكُرُ ؟ إنَّني صَحَفِيٌّ ، والصَّحَفِيّونَ هُمُ الَّذينَ يَتَذَكَّرونَ أمْثالَ هَذِهِ الأمورِ . وكانَتْ كاثْلين هِنْسون تعيشُ مَعَ أبيها وأمِّها في بَيْتٍ يقَعُ على طَريقِ مُونْماوث . وفي إحْدى اللَّيالي كانَتْ ذاهِبَةً إلى حَفْلٍ مَعَ خَطيبِها ، الَّذي لَمْ يَصِلْ حَسَبَ المَوْعِدِ المَضْروبِ ؛ لِذا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِها لِتَنْتَظِرَهُ في الشّارِعِ .»

وَتَوَقَّفَ بِل عَنِ الكلامِ ثانِيَةً ، فَقالَ رُوجَر : « ما الَّذي حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ أكْمِلْ يا بِل مِنْ فَضْلِكَ .»

قالَ بِل : « لَمْ يَسْتَطِعْ أحَدٌ التَّأكُّدَ تماماً مِمّا حَدَثَ . لَقَدْ

وَقَفَتْ هُناكَ تَنْتَظِرُ ، وَجاءَتْ سَيّارَةٌ في طَريقِ مُونْماوث ، الَّذي كانَتْ تَقِفُ فيهِ ، فَظَنَّتْها سَيّارَةَ خَطيبِها ، وَهُرِعَتْ إلى الطَّريقِ مُعْتَقِدَةً أنَّ السَّيّارَةَ سَتَتَوَقَّفُ ، وَلَكِنَّها لَمْ تَتَوَقَّفْ ؛ إذْ لَمْ يَخْطِرْ بِبالِ السّائِقِ الغَريبِ عَنِ المِنْطَقَةِ أنَّها كانَتْ تَنْتَظِرُ شَخْصاً ما ، وَلَمْ يَفْطِنْ إلى اعْتِقادِها بِأنَّ سَيّارَتَهُ سَتَتَوَقَّفُ ، وَلَمْ يُبْطِئْ مِنْ سُرْعَتِهِ . وَلَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ ، فَقَدْ كانَ الوَقْتُ قَدْ فاتَ ، فَصَدَمَها صَدْمَةً أوْدَتْ بِحَياتِها .»

وَصَرَخَتْ زَوْجَةُ رُوجَر : « يا لَهُ مِنْ حادِثٍ مُرَوِّعٍ !»

قالَ بِل : « أجَلْ ، كانَ حادِثاً مُرَوِّعاً . وَقَدْ قَرَّرَتِ الشُّرْطَةُ أنَّ الحادِثَةَ قَضاءٌ وَقَدَرٌ ، فَلَمْ يُوَجِّهوا أيَّ اتِّهامٍ لِلسّائِقِ . وَقَدْ أوْفَدَتْني صَحيفَتي إلى مَكانِ الحادِثِ ، وَهُوَ طَريقُ مُونْماوث ، فَوَجَّهْتُ لِلنّاسِ أسْئِلَةً كَثيرَةً ، وَلَكِنَّني لَمْ أكْتَشِفْ أيَّةَ حَقائِقَ جَديدَةٍ . ها أنْتَ ذا الآنَ قَدْ عَرَفْتَ لِمَ اسْتَطَعْتُ أنْ أتَعَرَّفَ عَلى الفَتاةِ ؛ إنَّني لَمْ أنْسَها قَطُّ !»

« وَلَكِنْ ، يا بِل ، لِماذا خاطَبَتْني كاثْلين هِنْسون دونَ سائِرِ النّاسِ جَميعاً ؟ وَلِماذا أمَرَتْني أنْ أنْعَطِفَ يَميناً في طَريقِ مُونْماوث ؟»

« لأنَّ سيّارَتَكَ هِيَ الّتي قَتَلَتْها ! اِقْبَلْ نصيحَتي ، يا رُوجَر ، وَلا تَسْتَعْمِلْ هَذِهِ السَّيّارَةَ مَرَّةً أخرى بَعْدَ اليَوْم .»

صَديقُ العائِلَة

ناوَلَتْ سيسيلي فرُوبيشَر خِطاباً لِزَوْجِها قائِلَةً : « إنّي أعْرِفُ أنَّ ذلِكَ لا يَروقُكَ ، بَيْدَ أنَّهُ لايُمْكِنُنا الرَّفْضُ .» وَكانا جالِسَيْن إلى مائِدَةِ الإفْطارِ في مَطْبَخِهِما الكَبيرِ المُريح ، وَكانَ مُوَزِّعُ البَريدِ قَدْ سَلَّمَها مَجْموعَةَ خِطابات .

قالَتْ : « اِقْرَأْهُ بِنَفْسِكَ يا فريدْريك ، وَسَوفَ تَرى كَمْ هِيَ مَسْأَلَةٌ صَعْبَةٌ . فَأنا صَديقَةُ سُوزان بليك مُنْذُ ما يَرْبو عَلى عِشْرينَ سَنَةً ، وكُنّا رَفيقَتَيْ دِراسَةٍ ، فَكَيْفَ أرْفُضُ أنْ تَأتِيَ ابْنَتُها لِلْعَيْش مَعَنا ؟!»

« إنّي أعْلَمُ كَمْ تُحِبّينَ سُوزان ، وَأنا أيْضاً أحِبُّها ، بَيْدَ أنّي لا أحِبُّ زَوْجَها ، ذلِكَ الرَّجُلَ المُزْعِجَ ، وَلا أثِقُ بِهِ ، فَهُوَ كَذّابٌ .»

« وَأنا كَذلِكَ لا أحِبُّ تيرَنْس بليك وَ لا أثِقُ بِهِ . وَ هُوَ لَنْ يَأتِيَ لِلإقامَةِ مَعَنا هُوَ وَزَوْجَتُهُ ، بَل ابْنَتُهُما إيزابيل هِيَ الّتي سَتَأتي .

أرْجوكَ أنْ تَقْرَأَ الخِطابَ يا فريدْريك ، وَعِنْدَئِذٍ سَتَفْهَمُ . وَآمُلُ أنْ تُوافِقَني عَلى مَجيئِها .»

وَبَدَأَ فريدْريك فُروبيشَر يَقْرَأُ خِطابَ سُوزان بليك . وَكانَ خِطاباً مُسْهَباً ، وَمَعَ ذلِكَ قَرَأَهُ كُلَّهُ بِإمْعان ، فَقَدْ كانَ يُريدُ مُساعَدَةَ زَوْجَتِهِ قَدْرَ اسْتِطاعَتِهِ .

شَرَحَتْ سُوزان مُشْكِلَتَها بِوُضوح ؛ فَقَدْ حَصَلَ زَوْجُها عَلى وَظيفَةٍ في كَنَدا لِقاءَ أجْرٍ مُرْتَفِع في وَقْتٍ هُما في مَسيس الحاجَةِ إلَيْهِ . وَكانَ قَدْ سافَرَ فِعْلاً إلى كَنَدا ، وَكانَتْ هِيَ تَرْغَبُ في



اللَّحاق بِهِ هُناكَ بِأسْرَعَ ما يُمْكِنُها . وَلَكِنَّ ابْنَتَهُما إيزابيل لَمْ تَتَجاوَزِ السّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها ، وَلا تَزالُ طالِبَةً بِالمَدْرَسَةِ . وَكانَتْ رَغْبَةُ أمِّها أنْ تَظَلَّ في المَدْرَسَةِ في إنْجِلْترا حَتّى الثامِنَةَ عَشْرَةَ ، وَبَعْدَ ذلِكَ تَلْحَقُ بِأبَوَيْها في كَنَدا . وَأرادَتْ سُوزان أنْ تَعيشَ إيزابيل مَعَ آلِ فُروبيشَر حَتّى تَفْرُغَ مِنْ مَرْحَلَةِ دِراسَتِها . وَكانَتْ سُوزان وسيسيلي صَديقَتَيْنِ مُنْذُ أمَدٍ طَويل ، وَكانَ يُسْعِدُ سُوزان أنْ تَقومَ سيسيلي بِرِعايَةِ إيزابيل ، فَإذا لَمْ تُوافِقْ سيسيلي عَلى ذلِكَ عَدَلَتْ سُوزان عَنِ السَّفَرِ إلى كَنَدا . وَكانَ آلُ فُروبيشَر هُمْ أصْدِقاءَها الحَقيقِيّينَ الوَحيدينَ . وَلَمْ يَكُنْ لإيزابيل جَدَّةٌ أوْ جَدٌّ عَلى قَيْدِ الحَياةِ ، فَأيْنَ تَذْهَبُ ؟

أعادَ فريدْريك فُروبيشَر الخِطابَ إلى زَوْجَتِهِ قائِلاً : « كَمْ يُؤْلِمُني أمْرُها !»

« وَأنا أيْضاً يافريدْريك ؛ إذْ يَجِبُ أنْ تَلْحَقَ سُوزان بِتيرَنْس بِأسْرَعِ ما تَسْتَطيعُ ، فَهذِهِ أوَّلُ وَظيفَةٍ مَرْموقَةٍ يَحْصُلُ عَلَيْها مُنْذُ سَنَواتٍ .»

« وَطَبْعاً إذا لَمْ تَلْحَقْ بِهِ فَسَوْفَ يُسيءُ التَّصَرُّفَ ، وَقَدْ يَخْسَرُ الوَظيفَةَ . صَدِّقيني إنَّهُ غَيْرُ أهْلٍ لِلثِّقَةِ ، حَتّى إنَّ زَوْجَتَهُ أيْضاً لا تَثِقُ بِهِ .»

قالَتْ زَوْجَتُهُ : « لَيْسَتْ هذهِ غَلْطَةَ سُوزان .»

قالَ فريدْريك غاضِباً : « سَتَكونُ حَمْقاءَ إنْ هِيَ وَثِقَتْ بِهِ . إنَّهُ لَمْ يَكُنْ أميناً عِنْدَما باعَنا هذا البَيْتَ .»

قالَتْ زَوْجَتُهُ تُذَكِّرُهُ بِرِفْقٍ : « كانَ ذلِكَ مُنْذُ عَشْرِ سَنَواتٍ ، وَقَدْ عِشْنا هُنا سَعيدَيْنِ لِلْغايَةِ .»

اِبْتَسَمَ لها قائِلاً : « لَقَدْ كُنّا دائِماً سَعيدَيْنِ يا عَزيزَتي . كُنّا سَعيدَيْنِ في كُلِّ بَيْتٍ أقَمْنا فيهِ . وَ بَيْتُنا هذا جَميلٌ ، ولكِنَّ تيرنس بليك خَدَعَنا وَتَقاضى مِنّا ثَمَناً أعْلى بِكَثيرٍ مِمّا يَسْتَحِقُّ .»

« لَعَلَّهُ كانَ حَزيناً ، وَلَمْ يَكُنْ يُريدُ أنْ يَبيعَهُ ، فَقَدْ عاشَتْ فيهِ أُسْرَتُهُ سَنَواتٍ طَويلَةً . لَقَدْ عاشَ هُنا أبوهُ وَأُمُّهُ (جَدُّ إيزابيل وَجَدَّتُها). لَقَدْ عاشَ هُنا آلُ بليك مِئاتِ السِّنينَ . فَلا بُدَّ إذاً أنْ يَشُقَّ عَلَيْهِ بَيْعُهُ .»

« كانَتْ هذِهِ غَلْطَتَهُ ، فَقَدْ كانَ مُسْتَهْتِراً أحْمَقَ ، أنْفَقَ كُلَّ مالِهِ وَاضْطُرَّ إلى بَيْعِ البَيْتِ ، وَلَمْ يَعُدْ يُطيقُ الحَياةَ هُنا .»

نَهَضَتْ سيسيلي مِنْ مَقْعَدِها وَوَضَعَتْ يَدَها عَلى ذِراعِ زَوْجِها قائِلَةً : « كُفَّ يا عَزيزي عَنِ الحَديثِ عَنْ تيرنس ، فَأنا مُتَّفِقَةٌ مَعَكَ

عَلى رَأْيِكَ فيهِ ، وَلكِنْ ماذا أنا قائِلَةٌ لِسُوزان ؟»

ظَلَّ فريدْريك صامِتاً لَحْظَةً ، ثُمَّ قالَ بِبُطْءٍ : « لَقَدْ أخْبَرْتُكِ مِنْ قَبْلُ يا سيسيلي بِأنّي مُتَأَلِّمٌ ، وَأُحِبُّ أنْ أُساعِدَها .»

« أأكْتُبُ إلَيْها إذاً وَأُخْبِرُها بِمُوافَقَتِنا عَلى اسْتِضافَةِ إيزابيل ؟»

وَنَظَرَ زَوْجُها إلى ساعَتِهِ قائِلاً : « لَقَدْ تَأَخَّرْتُ ، وَكانَ عَلَيَّ أنْ أبْدَأَ العَمَلَ مُنْذُ نِصْفِ السّاعَةِ .» ثُمَّ الْتَفَتَ إلى زَوْجَتِهِ قائِلاً : « تَرْغَبينَ في مَجيءِ الفَتاةِ ، ألَيْسَ كَذلِكَ ؟»

أوْمَأَتْ بِرَأْسِها قائِلَةً : « بَلى يا فريدْريك . إنَّني لَمْ أرَ إيزابيل مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ ، فَقَدْ كانَتْ صَبِيَّةً صَغيرَةً لَطيفَةً ، وَلَسَوْفَ تُدْخِلُ إقامَتُها مَعَنا السُّرورَ عَلى قَلْبَيْنا ، فَضْلاً عَنْ كَوْنِها صَديقَةً لِلْعائِلَةِ .»

اِبْتَسَمَ فريدْريك قائِلاً : « أُكْتُبي إلَيْها اليَوْمَ ، يا سيسيلي ، وَادْعيها لِلْحُضورِ ، وَسَنُحاوِلُ أنْ نُسْعِدَها .»

وَغادَرَ المَطْبَخَ وَأغْلَقَ البابَ وَراءَهُ ، وَسَمِعَتْ وَقْعَ قَدَمَيْهِ وَهُوَ يَعْبُرُ الرَّدْهَةَ ، ثُمَّ سَمِعَتْ بابَ مَكْتَبَتِهِ يُفْتَحُ ثُمَّ يُغْلَقُ . لَقَدْ كانَ يُؤَلِّفُ كِتاباً جَديداً وَلَنْ يَبْرَحَ مَكْتَبَتَهُ حَتّى يَحينَ مَوْعِدُ الغَداءِ .

قالَتْ لِنَفْسِها : « حَسَنٌ ، إيزابيل لَنْ تَكونَ مَصْدَرَ إزْعاجٍ لَهُ ،

وَلَنْ تَعْتَرِضَ طَرِيقَهُ . إنَّ الدّارَ كَبيرَةٌ فَسيحَةٌ ، وَفيها مُتَّسَعٌ لَنا جَميعاً .»

بَعْدَ انْقِضاءِ شَهْرٍ ، وَذاتَ أُمْسِيَّةٍ بارِدَةٍ في شَهْرِ ديسمبر ، كانَتْ سيسيلي فْرُوبيشر واقِفَةً في بَهْوِ المَنْزِلِ وَحْدَها . وَكانَ زَوْجُها قَدْ ذَهَبَ بِسَيّارَتِهِ إلى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الحَديدِيَّةِ لاِسْتِقْبالِ إيزابيل بليك . وَدارَتْ سيسيلي بِعَيْنَيْها في أَرْجاءِ البَهْوِ : كانَتْ نارُ المِدْفَأَةِ تَبْعَثُ عَلى البَهْجَةِ ، وَالمَصابيحُ كُلُّها مُضاءَةٌ ؛ فَقَدْ أَرادَتْ أَنْ تُظْهِرَ في الدّارِ آياتِ التَّرْحيبِ بِإيزابيل . وَأَسْرَعَتْ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّ حُجْرَةَ نَوْمِ الفَتاةِ دافِئَةٌ وَمُبْهِجَةٌ .

وَعِنْدَما عادَتْ إلى الطّابَقِ السُّفْلِيِّ أَحَسَّتْ فَجْأَةً بِأَنَّها مَريضَةٌ ، وَكانَ قَلْبُها يَدُقُّ بِشِدَّةٍ وَرَأْسُها يُؤْلِمُها ، فَجَلَسَتْ في كُرْسِيٍّ بِجِوارِ المِدْفَأَةِ .

قالَتْ لِنَفْسِها : « يا لَكِ مِنِ امْرَأَةٍ حَمْقاءَ يا سيسيلي فْرُوبيشر ! إنَّكِ مُتَوَتِّرَةٌ لأَنَّ فَتاةً في السّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها آتِيَةٌ لِتُقيمَ مَعَكِ . يالَكِ مِنِ امْرَأَةٍ حَمْقاءَ ! مِمَّ تَخافينَ ؟ إنَّ لَكِ زَوْجاً مُحِبّاً يَكْسِبُ كَثيراً مِنَ المالِ . إنَّهُ يُؤَلِّفُ كُتُباً قَيِّمَةً يَبْتاعُها الآلافُ مِنَ النّاسِ ، وَأَنْتِ بِخَيْرٍ وَسَعيدَةٌ . وَالآنَ أَغْمِضي عَيْنَيْكِ ، وَاسْتَريحي إلى أَنْ

تَصِلَ إيزابيل .»

وَغَلَبَها النُّعاسُ فاسْتَرْخَتْ في كُرْسِيِّها المُريحِ بِجِوارِ المِدْفَأَةِ ، وَراحَتْ في سُباتٍ عَميقٍ ، وَرَأَتْ في الحُلْمِ أَنَّها نائِمَةٌ في كُرْسِيِّها بِالرَّدْهَةِ ، وَرَأَتْ بابَ المَكْتَبَةِ يَنْفَتِحُ ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ امْرَأَةٌ عَجوزٌ . وَكانَتْ تَرْتَدي ثَوْباً فَضْفاضاً أَسْوَدَ اللَّوْنِ ، وَكانَ شَعْرُها أَشْيَبَ . وَعَبَرَتِ المَرْأَةُ العَجوزُ الرَّدْهَةَ عَلى مَهَلٍ ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ المِدْفَأَةِ ، وَالْتَفَتَتْ إلى السَّيِّدَةِ النّائِمَةِ . وَكانَتْ سيسيلي تَعْرِفُ أَنَّ الزّائِرَةَ الغَريبَةَ توشِكُ أَنْ تَتَكَلَّمَ .

وَصَرَخَتْ سيسيلي في المَرْأَةِ : « لا تَتَكَلَّمي ! لا تَتَكَلَّمي ، فَلَنْ أُصْغِيَ إلَيْكِ !»

وَأَيْقَظَتْها صَرْخَتُها فَهَبَّتْ واقِفَةً عَلى قَدَمَيْها لِتَجِدَ الرَّدْهَةَ خالِيَةً . وَعِنْدَئِذٍ انْفَتَحَ البابُ الأَمامِيُّ وَسَمِعَتْ صَوْتَ فَتاةٍ تَقولُ : « إنّي أَعْرِفُ الطَّريقَ ؛ فَقَدْ كُنْتُ أَعيشُ هُنا كَما تَعْلَمُ ، وَأَسْتَطيعُ التَّجْوالَ في هذِهِ الدّارِ حَتّى في الظَّلامِ .»

وَأَقْبَلَ نَحْوَها فريدْريك وَإيزابيل ، وَكانَ فريدْريك يَحْمِلُ حَقيبَتَها ، وَقالَ مُبْتَسِماً : « ها قَدْ وَصَلْنا يا سيسيلي . لَقَدْ تَأَخَّرَ القِطارُ ، وَالجَوُّ اللَّيْلَةَ بارِدٌ مَطيرٌ . اِصْحَبي إيزابيل إلى غُرْفَتِها ، وَسَأُحْضِرُ أَنا

حَقيبَتَها ؛ وبَعْدَها نَتناوَلُ عَشاءَنا ، فإنّي جائعٌ ، وَمِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ إيزابيل جائعَةٌ هِيَ الأخْرى .»

كانَتْ إيزابيل طَويلَةَ القامَةِ سَمْراءَ تَميلُ إلى النَّحافَةِ . وَكانَتْ عَيْناها بَرّاقَتَيْن ، وَكانَتْ تَتَنَفَّسُ بِسُرْعَةٍ ، وَلَمْ تَكُنْ عَصَبِيَّةَ المِزاجِ . وَكانَتْ سِيسِيلي موقِنَةً مِنْ ذَلِكَ ، غَيْرَ أنَّ إيزابيل كانَتْ مُنْفَعِلَةً قَليلاً ، وَكانَتْ تَتَكَلَّمُ بِسُرْعَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يُداخِلُها أيُّ خَوْفٍ .

قالَتْ إيزابيل : « جَميلٌ مِنْكِ ، يا سَيِّدَةُ فُروبيشَر ، أنْ تَسْمَحي لي بِالمَجيءِ إلى هُنا . إنَّ لَدَيَّ إحْساساً قَوِيًّا بِأنّي قَدْ عُدْتُ إلى بَيْتي .»

وَكانَتْ ألْفاظُها مُهَذَّبَةً . وَقَدْ حاوَلَتْ سِيسِيلي أنْ تُجيبَها ، وَلَكِنَّها شَعَرَتْ بِالضّيقِ ، فَقَدْ أحَسَّتْ بِأنَّها غَريبَةٌ في دارِها . تُرى مَنِ الزّائِرُ ؛ الفَتاةُ أمْ سِيسِيلي ؟!

وَتَطَلَّعَتْ إيزابيل حَوْلَها في الرَّدْهَةِ قائِلَةً : « إنَّها تَخْتَلِفُ عَنْ ذي قَبْلُ . لَقَدْ أدْخَلْتُمْ تَعْديلاتٍ عَلَيْها .»

« حَسَنٌ ، لَقَدْ أجْرَيْنا ...» بَيْدَ أنَّ سِيسِيلي لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تُكْمِلَ حَديثَها ؛ إذْ قاطَعَتْها الفَتاةُ قائِلَةً : « طَبْعًا ، فَهِيَ دافِئَةٌ وَضَوْءُها غامِرٌ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنا مِدْفَأَةٌ في الرَّدْهَةِ ؛ فَإنَّ إمْكانيّاتِنا المالِيَّةَ لَمْ تَكُنْ تَسْمَحُ بِذلِكَ ، لَكِنَّكُمْ أغْنِياءُ ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟»

قالَتْ سِيسِيلي مُحاوِلَةً أنْ تَتَكَلَّمَ بِهُدوءٍ : « نَعَمْ ، نَعَمْ يا إيزابيل . لَسْنا أغْنِياءَ ، وَلَكِنْ لَدَيْنا ما يَكْفي ...»

سَأَلَتِ الفَتاةُ دونَ أنْ تَنْتَظِرَ حَتّى تَسْمَعَ ما تَقولُ سِيسِيلي : « أيَّةُ غُرْفَةٍ خَصَّصْتِها لي ؟»

« سَتَنامينَ في غُرْفَةِ النَّوْمِ الكَبيرَةِ الَّتي في واجِهَةِ البَيْتِ ، فَهِيَ تُطِلُّ عَلى مَنْظَرٍ بَديعٍ لِلْحَديقَةِ . أرى أنَّكِ تَوَدّينَ ...»

« أجَلْ . شُكْرًا لَكِ فَقَدْ كانَتْ دائِماً غُرْفَتي . لا تَصْعَدي مَعي فَإنّي أعْرِفُ الطَّريقَ .»

وَصَعِدَتِ الدَّرَجَ جَرْيًا ، وَتَبِعَها فريدْريك بِبُطْءٍ حامِلاً حَقيبَتَها في يَدِهِ ، أمّا سِيسِيلي فَقَدْ وَقَفَتْ تَرْقُبُهُما وَهُما يَصْعَدانِ .

وَعِنْدَما عادَ فريدْريك إلى الرَّدْهَةِ ألْفى زَوْجَتَهُ تُحَدِّقُ إلى النّار ، فَدَنا مِنْها فَالْتَفَتَتْ إلَيْهِ قائِلَةً : « لَقَدِ ارْتَكَبْتُ خَطَأً جَسيماً يا فريدْريك .»

قالَ : « لا تَتَعَجَّلي الحُكْمَ . إنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتَّسِمُ بِالغَرابَةِ إلى حَدٍّ ما ، فَقَدِ اعْتَدْنا الحَياةَ الهادِئَةَ . وَسَوْفَ تَسيرُ الأمورُ عَلى مايُرامُ .»

كانَ يُحاوِلُ أنْ يُسَرِّيَ عَنْها ، وَلَكِنَّهُ كانَ يَتَكَلَّمُ بِعَصَبِيَّةٍ ، وَكانَ صَوْتُهُ مُنْخَفِضاً لِدَرَجَةٍ تَعَذَّرَ مَعَها أنْ تَسْمَعَهُ .

وَمَرَّ أسْبوعٌ وَأضْحَتْ سيسيلي أكْثَرَ أمَلاً ، فَلَعَلَّها لَمْ تَرْتَكِبْ خَطَأً . وَلَمْ تَكُنْ إيزابيل تَقْريباً تُسَبِّبُ لَهُما أيَّ إزْعاجٍ ، وَكانَتْ تُساعِدُ في أعْمالِ المَطْبَخِ ، وَتُشارِكُ بِأدَبٍ وَلَباقَةٍ في الحَديثِ أثْناءَ تَناوُلِهِمُ الطَّعامَ ، وَأثْناءَ جُلوسِهِمْ في المَساءِ مَعاً . وَكانَتْ تَأوي إلى الفِراشِ مُبَكِّرَةً ، وَتَقْضي مُعْظَمَ الوَقْتِ في غُرْفَتِها الخاصَّةِ . وَبَدَتْ سَعيدَةً في حَياتِها الجَديدَةِ .

وَذاتَ يَوْمٍ قالَتْ لَها سيسيلي ، وَهُما في المَطْبَخِ ، وَكانَ الغَداءُ جاهِزاً : « كَمْ يُؤْسِفُني أنْ تَشْعُري بِالوَحْدَةِ ، خاصَّةً وَأنَّ الحَياةَ في مِثْلِ هذِهِ الدّارِ الكَبيرَةِ تَبْعَثُ عَلى الشُّعورِ بِالوَحْدَةِ لِفَتاةٍ شابَّةٍ مِثْلِكِ . وَلَكِنْ سَوْفَ يَتَحَسَّنُ الحالُ عِنْدَما تَنْتَهي العُطْلَةُ ، وَسَوْفَ يَكونُ لَكِ أصْدِقاءُ في مِثْلِ عُمْرِكِ عِنْدَما تَذْهَبينَ إلى مَدْرَسَتِكِ الجَديدَةِ . »

اِبْتَسَمَتْ إيزابيل قائِلَةً : « أشْعُرُ بِالوَحْدَةِ ؟ إنَّني لا أشْعُرُ بِالوَحْدَةِ يا سَيِّدَةُ فُروبيشَر ؛ فَأنّى لي أنْ أشْعُرَ بِالوَحْدَةِ هُنا ؟ »

سُرَّتْ سيسيلي بِذَلِكَ الرَّدِّ ، فَلَعَلَّ إيزابيل قَدْ أحَبَّتْهُما ، فَقالَتْ : « إنَّ هذِهِ رِقَّةٌ مِنْكِ يا عَزيزَتي ، وَلَكِنَّكِ تَحْتاجينَ إلى أصْدِقاءَ في

مِثْلِ سِنِّكِ . وَسَوْفَ يَكونُ بِمَقْدورِكِ أنْ تُوَجِّهي الدَّعْوَةَ لِمَنْ سَتُصادِقينَهُمْ في المَدْرَسَةِ لِلْمَجيءِ إلى هُنا . »

« لَسْتُ في حاجَةٍ إلى أصْدِقاءَ مِنَ الشَّبابِ ؛ فَمَنْ أحْتاجُهُمْ مِنَ الأصْدِقاءِ مَوْجودونَ هُنا فِعْلاً . »

« نَعَمْ يا عَزيزَتي ، فَجَميلٌ مِنْكِ أنْ تَقولي هذا ، لَكِنَّ فريدْريك وَأنا أكْبَرُ كَثيراً مِنْ أنْ نَكونَ ... »

« أنا لَمْ أكُنْ أفَكِّرُ فيكِ وَلا في زَوْجِكِ ! »

« ماذا تَعْنينَ يا إيزابيل ؟ مَنْ ... ؟ »

وَغادَرَتِ الفَتاةُ الحُجْرَةَ قَبْلَ أنْ تُكْمِلَ سيسيلي سُؤالَها . وَانْغَلَقَ البابُ وَراءَها ، وَسَمِعَتْ سيسيلي الفَتاةَ تَضْحَكُ ضِحْكَةً رَقيقَةً وَهِيَ تَعْبُرُ الرَّدْهَةَ .

وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كانَ فريدْريك وَسيسيلي فُروبيشَر يَجْلِسانِ – بَعْدَ العَشاءِ – في الرَّدْهَةِ بِجانِبِ المِدْفَأةِ ، وَكانَتْ إيزابيل قَدْ أوَتْ إلى غُرْفَتِها بِالطّابَقِ العُلْوِيِّ . وَجَلَسَ الزَّوْجانِ صامِتَيْنِ ، وَكانَ كِلاهُما يُريدُ أنْ يَتَحَدَّثَ إلى الآخَرِ ، لَكِنَّ الكَلِماتِ لَمْ تُسْعِفْهُما .

وَقَطَعَتْ سيسيلي حَبْلَ الصَّمْتِ ، وَتَكَلَّمَتْ بِهُدوءٍ شَديدٍ ، فَقَدْ

خَشِيتَ أنْ تَتَكَلَّمَ بِصَوْتٍ عالٍ . قالَتْ : « لا يَبْدو أنَّكَ على ما يُرامُ يا فريدْريك . ما الأمْرُ ؟ أ لَسْتَ سَعيداً بِكِتابِكَ الجَديدِ ؟ »

« إنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ أنْ أشْرَحَ لَكِ الأمْرَ يا سيسيلي . إنّني أعْرِفُ أنّها حَماقَةٌ منّي ، غَيْرَ أنّي لَمْ أسْتَطِعْ كِتابَةَ سَطْرٍ واحِدٍ مُنْذُ أتَتْ إلَيْنا إيزابيل ! »

« لكنّها لاتُزْعِجُكَ ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟ إنّها لا تُحْدِثُ جَلَبَةً ، وَأعْتَقِدُ أحْياناً أنّها هادِئَةٌ أكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي . »

« كَلاّ إنّها لا تُزْعِجُني ألْبَتَّةَ . لَيْسَتْ إيزابيل هِيَ الّتي ... » ثُمَّ أمْسَكَ عَنِ الكَلامِ وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ الخَوْفُ .

« أكْمِلْ يا فريدْريك ! مِنْ فَضْلِكَ خَبِّرْني ! »

« إنَّكِ تَعْرِفينَ أنَّهُ لِكَيْ أؤَلِّفَ كِتاباً يَنْبَغي أنْ أكونَ وَحْدي ، وَلا أسْتَطيعُ العَمَلَ إلا حينَ أكونُ وَحْدي وفي جَوٍّ هادِئٍ ؛ وَلِذا كانَتْ حُجْرَةُ مَكْتَبَتي مُهِمَّةً لِلْغايَةِ بِالنِّسْبَةِ لي . إنَّها كَبيرَةٌ وَهادِئَةٌ وَمُريحَةٌ ، وَفيها كُتُبي . وَأنا أسْتَطيعُ أنْ أجْلِسَ إلى مَكْتَبي وَأكْتُبَ ساعاتٍ طَوِيلَةً . »

« إنّي أعْرِفُ ذلِكَ يا عَزيزي ، وَلَمْ يَخْتَلِفِ الأمْرُ عَنْ ذي قَبْلُ ؛

فَمَكْتَبَتُكَ هِيَ هِيَ كَما كانَتْ دائِماً ، وَأنْتَ تَدْخُلُها كُلَّ صَباحٍ بَعْدَ الإفْطارِ وَتَظَلُّ فيها حَتّى مَوْعِدِ الغَداءِ . »

« أجَلْ ، وَمَعَ ذلِكَ لَمْ أخُطَّ حَرْفاً واحِداً . وَقَدْ حاوَلْتُ جاهِداً ، وَلكِنَّني لا أسْتَطيعُ تَرْكيزَ تَفْكيري في عَمَلي . إنّني لَسْتُ وَحْدي هُناكَ ! »

« لَسْتَ وَحْدَكَ ! ماذا تَقْصِدُ يا فِريدْريك ؟ إنّني لا أدْخُلُ عَلَيْكَ المَكْتَبَةَ أبَداً وَأنْتَ تَعْمَلُ . وَأنا موقِنَةٌ مِنْ أنَّ إيزابيل لا تَدْخُلُ عَلَيْكَ أيضاً . أمّا إذا كانَتْ تَفْعَلُ ؛ فَعَلَيْكَ إذاً أنْ تَنْهاها ، أوْ أنْهاها أنا . »

« لا ، إنَّها لا تَدْخُلُ عَلَيَّ . وَلكِنَّني عِنْدَما أجْلِسُ في مَقْعَدي أسْمَعُ صَوْتاً ، وَيَغْلِبُ على ظَنّي أنَّهُ صَوْتُ امْرَأةٍ ... اِمْرَأةٍ عَجوزٍ ! وَيَبْدو أنَّها تَقولُ لي شَيْئاً ، وَلكِنَّني لا أسْمَعُ كَلِماتِها . وَتَبْدو لِيَ الغُرْفَةُ غَريبَةً ، وَكَأنَّها لَيْسَتْ غُرْفَتي ، وَكَذلِكَ المَكْتَبُ وَالكُرْسِيُّ ... لا شَيْءَ في الغُرْفَةِ يَبْدو أنَّهُ يَخُصُّني . »

صاحَتْ سيسيلي : « كَفى يا فريدْريك ! إنَّكَ تُخيفُني ! أنْتَ في حاجَةٍ إلى الرّاحَةِ ... إلى إجازَةٍ . يَجِبُ أنْ ... »

وَأمْسَكَتْ عَنِ الكَلامِ ؛ إذْ سَقَطَ ظِلٌّ عَلى وَجْهِها ، فَرَفَعَتْ

عَيْنَيْها لِتَرى إيزابيل واقِفَةً على الدَّرج ، فَقالَتْ لها وَقَدْ كَسا الخَوْفُ صَوْتَها بِالغَضَبِ : « ماذا تُريدينَ ؟ لِماذا تَتَحَرَّكينَ بِهَذا الهُدوءِ ؟ »

أجابَتِ الفَتاةُ وَقَدْ بَدَتْ لَهُما مُبْتَسِمَةً : « إنَّني أتَحَرَّكُ دائِماً بِهُدوءٍ ، فَأنْتُما تُريدانِ أنْ يَكونَ البَيْتُ هادِئاً ، وَأنا أحاوِلُ ألا أسَبِّبَ لَكُما أيَّ إزْعاج . لَقَدْ شَعَرْتُ بِالعَطَش ؛ فَنَزَلْتُ لأتَناوَلَ كوباً مِنَ الماءِ . »

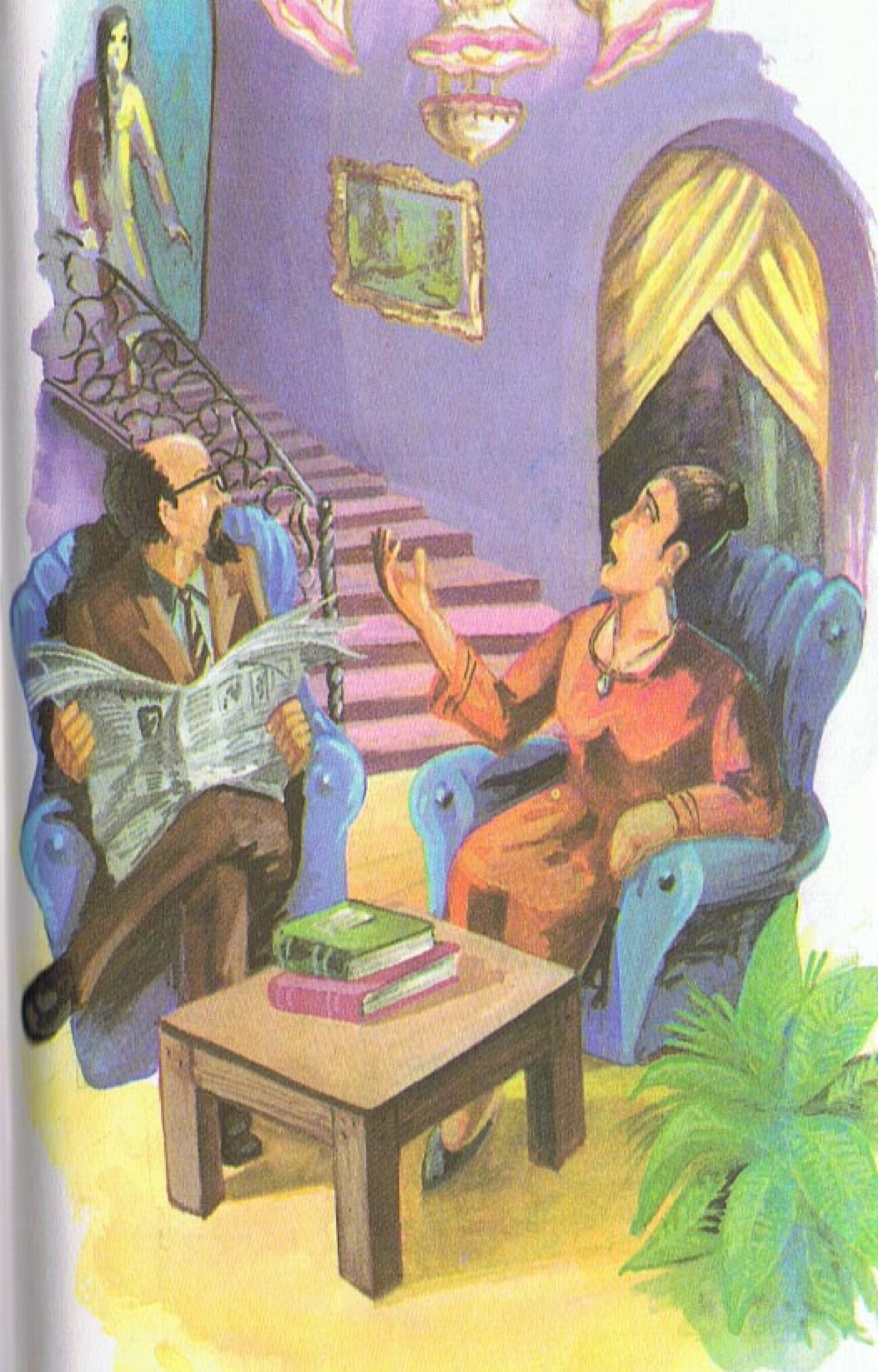
« فَلْتَأخُذيه وَ تَعودي إلى غُرْفَتِكِ . »

« سآخُذُهُ ، يا سَيِّدَةُ فُرُوبيشَر . »

وَعادَتْ مِنَ المَطْبَخ بَعْدَ لَحَظاتٍ وَوَضَعَتِ الكوبَ ، وَ وَقَفَتْ بَيْنَهُما وَقالَتْ : « لا أظُنُّ أنَّ أيّاً مِنْكُما قَدْ رَأى جَدَّتي ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟ »

أجابَها فريدْريك : « أنا لَمْ أرَها وَلا أخالُ زَوْجَتي رَأتْها ؛ إذْ لَمْ يَزُرْ أحَدٌ مِنّا هذِهِ الدّارَ عِنْدَما كُنْتُمْ تَعيشونَ فيها . لَقَدْ جاءَتْ والِدَتُكِ لِلإقامَةِ مَعَنا مَرَّةً أو مَرَّتَين ، أمّا نَحْنُ فَلَمْ نَأتِ إلى هُنا . »

« لَقَدْ عاشَتْ جَدَّتي مَعَنا هُنا – وَأنا طِفْلَةٌ صَغيرَةٌ – وَقَدْ أحْبَبْتُها حُبّاً شَديداً . وَكانَتْ تَقُصُّ عَلَيَّ حِكاياتٍ كَثيرَةً عَنْ هذا البَيْتِ ،



وَهُوَ بَيْتٌ عَتيقٌ كَما تَعْرِفانِ . وَقَدْ ماتَتْ هُنا ، وَفَقَدَ أَبي بَعْدَ ذلِكَ ثَرْوَتَهُ ، فَاشْتَرَيْتُما أَنْتُما دارَنا هذِهِ .»

« إِنَّها مأساةٌ يا إيزابيل ، وَكَمْ يُحْزِنُنا ما حَدَثَ ، وَلكِنْ ...»

« لا تَحزَنا مِنْ أجْلي ، فَقَدْ عُدْتُ الآنَ . وَقَدْ وَعَدَتْني جَدَّتي بِأَنَّ هذِهِ الدّارَ سَتَكونُ لي .»

وَابْتَسَمَتْ إيزابيل لَهُما ثانِيَةً ، وَخَيَّمَ الصَّمْتُ دَقيقَةً أَوْ دَقيقَتَيْن قَطَعَتْهُ بِقَوْلِها : « آمُلُ أَنْ تَسْمَحَ لي بِاسْتِعْمالِ غُرْفَةِ مَكْتَبَتِكَ يا سَيِّدُ فُروبيشَر ، فَقَدْ كانَتْ غُرْفَةَ جَدَّتي الخاصَّةَ ، وَلَمْ تَكُنْ تُحِبُّ أَنْ يَسْتَعْمِلَها أَحَدٌ سِواها إلا أنا . وَكانَتْ حَريصَةً عَلى أَنْ أَجْلِسَ مَعَها فيها ، حَيْثُ اعْتَدْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَسْتَمِعَ إلى قَصَصِها . وَأَعِدُكُما بِأَنَّني سَوْفَ أَكونُ في غايَةِ الهُدوءِ عِنْدَما أَدْخُلُ الغُرْفَةَ ، فَقَدْ كُنْتُ دائِماً هادِئَةً عِنْدَما كانَتْ تَحْكي لي .»

« لكِنْ ... لا أَظُنُّ ... لا ... لَنْ يَكونَ !» ثُمَّ تَلاشى صَوْتُ فريدْريك ، وَالْتَفَتَ إلى امْرَأَتِهِ فَرَآها وَقَدْ غَطَّتْ وَجْهَها بِيَدَيْها .

« لا تُحاوِلِ اتِّخاذَ القَرارِ الآنَ . آهِ ، لَقَدْ كِدْتُ أَنْسى . ها هِيَ ذي صورَةٌ لِجَدَّتي ، وَقَدْ أَحْضَرْتُها مَعي مِنْ فَوْقُ ، وَإِنّي لَموقِنَةٌ بِأَنَّها سَتُثيرُ اهْتِمامَكِ يا سَيِّدَةُ فُروبيشَر .»

وَدَسَّتْ إيزابيل الصّورَةَ في يَدِ سيسيلي قائِلَةً : « انْظُري إِلَيْها ، فَلَعَلَّكِ تَتَعَرَّفينَ عَلَيْها رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ .»

وَشَحَبَ وَجْهُ سيسيلي ، وَدَوَّتْ صَرْخَةُ الفَزَعِ الَّتي أَطْلَقَتْها في الغُرْفَةِ الهادِئَةِ ؛ فَقَدْ تَعَرَّفَتْ عَلى الصّورَةِ . وَكانَتْ صورةَ المَرْأَةِ العَجوزِ الَّتي رَأَتْها في مَنامِها .

لَمْ تُغْمَضْ عَيْنٌ لِأَيٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، بَلْ رَقَدا في فِراشِهِما يَتَحَدَّثانِ بِصَوْتٍ خَفيضٍ طَوالَ اللَّيْلِ .

« ماذا نَحْنُ فاعِلان يا فريدْريك ؟ يَجِبُ أَنْ تَرْحَلَ الفَتاةُ ، فَإِنَّها تُريدُ طَرْدَنا مِنْ مَنْزِلِنا !»

« إِنَّها لَنْ تَسْتَطيعَ طَرْدَنا مِنَ الدّارِ .»

« لكِنَّها لَيْسَتْ وَحْدَها . إِنَّ تِلْكَ السَّيِّدَةَ العَجوزَ الرَّهيبَةَ هُنا ، وَهِيَ تُساعِدُها . أ لا تَذْكُرُ ما قالَتْهُ إيزابيل ؟ لَقَدْ قالَتْ إِنَّ جَدَّتَها وَعَدَتْها بِهذِهِ الدّارِ ، وَسَتَنْتَزِعُها مِنّا .»

« مُسْتَحيلٌ ، فَهِيَ دارُنا ، وَقَدِ اشْتَرَيْناها بِنُقودِنا . وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ المَرْأَةُ العَجوزُ هُنا وَهِيَ في عِدادِ الأَمْواتِ ؟!»

« فَسِّرْ لي إِذاً لِماذا تَشْعُرُ بِأَنَّكَ لَسْتَ وَحْدَكَ في المَكْتَبَةِ ؟ مَنْ

هُوَ ذلِكَ الشَّخْصُ الَّذي يَكونُ مَعَكَ فيها ؟ لِماذا تَعَرَّفْتُ أنا على تِلْكَ الصُّورَةِ ؟»

« ولَكِنْ ، يا سِيسِيلي ...»

« صَهٍ ! أنْصِتْ !»

لَقَدْ طَرَقَ آذانَهُما صَوْتُ بابِ المَكْتَبَةِ يَنْفَتِحُ ثُمَّ يَنْغَلِقُ ، وَوَقْعُ خُطُواتٍ وَئِيدَةٍ تَعْبُرُ الرَّدْهَةَ . وَخُيِّلَ إلَيْهِما أنَّ شَخْصاً ما يَرْتَقي السُّلَّمَ . وَسَمِعا وَقْعَ أقْدامٍ تَمُرُّ أمامَ مَخْدَعِهِما . وَفَجْأَةً انْفَتَحَ بابُ المَخْدَعِ وَانْغَلَقَ ، وَسَمِعا أصْواتاً تَأْتي مِنْ بَعيدٍ في الظَّلامِ .

وَأمْسَكَتْ سِيسِيلي بِيَدِ زَوْجِها قائِلَةً : « خُذْني في الغَدِ بَعيداً عَنْ هُنا يا فريدْريك . إنَّني خائِفَةٌ !»

« سَنَرْحَلُ غَداً يا عَزيزَتي ، وَلَكِنْ يَجِبُ أنْ تَأْتيَ إيزابيل ، فَلا يُمْكِنُ أنْ نَتْرُكَها هُنا وَحْدَها .»

وَعِنْدَما طَلَعَ النَّهارُ ارْتَدى فريدْريك ثِيابَهُ على عَجَلٍ قائِلاً : « اُحْزُمي حَقيبَةً ، فَإنَّهُ يُمْكِنُنا أنْ نُقيمَ في أحَدِ فَنادِقِ القَرْيَةِ يوماً أو اثْنَيْنِ . وَسَأُوقِظُ إيزابيل ، ثُمَّ أُعِدُّ إبْريقاً مِنَ الشّايِ ، وَنَرْحَلُ بَعْدَ ذلِكَ .»

وَقَبْلَ أنْ تَكونَ سِيسِيلي جاهِزَةً عادَ فريدْريك قائِلاً : « أسْرِعي ! اُتْرُكي تِلْكَ الحَقيبَةَ ، فَإنَّ إيزابيل لَيْسَتْ في غُرْفَتِها .»

« لَيْسَتْ في غُرْفَتِها ! أيْنَ هِيَ إذاً ؟»

وَأسْرَعَ فريدْريك بِزَوْجَتِهِ إلى الطّابَقِ السُّفْلِيِّ ، وَخَرَجا مِنَ الدّارِ قَبْلَ أنْ يُجيبَ بِقَوْلِهِ : « إنَّ بابَ غُرْفَةِ المَكْتَبَةِ موصَدٌ ، وَلا أسْتَطيعُ الدُّخولَ . لَكِنَّ إيزابيل بِالدّاخِلِ ، وَهِيَ تَتَحَدَّثُ الآنَ إلى شَخْصٍ ما .» وَذَهَبَ بِالسَّيّارَةِ إلى القَرْيَةِ وَتَرَكَ سِيسِيلي في الفُنْدُقِ قائِلاً : «سَتَكونينَ في مَأْمَنٍ هُنا ، فَابْقَي حَتّى أعودَ .»

« أيْنَ أنْتَ ذاهِبٌ يا فريدْريك ؟»

« إنّي ماضٍ في طَلَبِ شُرْطِيٍّ وَاسْتِدْعاءِ الطَّبيبِ ، ثُمَّ أعودُ إلى دارِنا – إذا كانَتْ دارَنا حَقّاً !»

قالَ الشُّرْطِيُّ : « إنّي مُضْطَرٌّ إلى كَسْرِ إحْدى النَّوافِذِ ، وَالدُّخولِ مِنْها ، فَإنَّ القُفْلَ مَتينٌ وَلا يُمْكِنُ كَسْرُهُ .»

أمّا فريدْريك فُروبيشر وَالطَّبيبُ فَقَدْ وَقَفا مُتَرَقِّبَيْنِ عَلى بابِ المَكْتَبَةِ ، وَسَمِعا زُجاجَ النّافِذَةِ يَتَحَطَّمُ ، وَالمِفْتاحَ يُدارُ وَالبابَ يَنْفَتِحُ .

« أفْضَلُ أنْ تَدْخُلَ أنْتَ وَحْدَكَ يا دُكْتور لا السَّيِّدُ فُروبيشر ، فَإنَّ

الأمرَ هُنا لا يُطاقُ !»

وَازْدادَتْ سُرْعَةُ ضَرَباتِ قَلْبِ فريدْريك ، وَسَمعَ جَلَبَةً في المكْتَبَةِ ، وَكانَ الشُّرْطِيُّ يَتكَلَّمُ ، ثُمَّ سَمعَ صَوْتَ كُرْسِيٍّ يُنْقَلُ مِنْ مَوْضِعِهِ ، وَقالَ الطَّبيبُ شَيئاً . وَمَرَّتْ دَقائِقُ كَأَنَّها ساعاتٌ .

وَأخيراً انْفَتَحَ بابُ المكْتَبَةِ ، وَخَرَجَ الطَّبيبُ وَتَقَدَّمَ مِنْ فريدْريك وَأَمْسَكَ بِذِراعِهِ ، وَقادَهُ إِلى كُرْسِيٍّ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الرَّدْهَةِ .

قالَ الطَّبيبُ : « لَقَدْ ماتَتْ يا سَيِّدُ فُروبيشر ، وَهِيَ الآنَ جالِسَةٌ في كُرْسِيِّ المكْتَبِ الكَبيرِ . كَمْ كانَ عُمْرُها ؟»

« سِتَّةَ عَشَرَ عاماً يا دُكتور . لَقَدْ حَلَّ عيدُ ميلادِها السّادِسَ عَشَرَ قَبْلَ أَنْ تَجيءَ لِتَعيشَ مَعَنا .»

« سِتَّةَ عَشَرَ عاماً ! إِنَّ المرْءَ لَيَحارُ في فَهْمِ ما حَدَثَ لها . إِنَّ شَعْرَها أَشْيَبُ ، وَ وَجْهَها وَجْهُ سَيِّدَةٍ عَجوزٍ !»

بِطاقةُ عيدِ ميلادٍ لِلسَّيِّدَةِ روجَرز

تَناوَلْتُ حَقيبَةَ الرَّسائِلِ وَغادَرْتُ مَكْتَبَ البَريدِ . كانَتِ الحَقيبَةُ ثَقيلَةً ، وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أُسَلِّمَ كَثيراً مِنَ الخِطاباتِ لأَصْحابِها ، ولكِنَّني كُنْتُ مُبْتَهِجاً لِلْغايَةِ . كانَتِ السّاعَةُ السّابِعَةَ ، وَكانَ صَباحاً صَيْفِيًّا جَميلاً ، وَالشَّمْسُ مُشْرِقَةٌ تُبَشِّرُ بِنَهارٍ دافِئٍ .

وَ بَدَأَتْ جَوْلَتي الطَّويلَةُ في شَوارِعِ هِلْويك مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ ، وَلَمْ يَكُنِ الصَّباحُ المُشْرِقُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذي جَعَلَني أَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ . لَقَدْ كُنّا - أنا وَزَوْجَتي - نَعيشُ قَبْلَ ذلِكَ في لَنْدَن ، وَقَدْ عَمِلْتُ مُوَزِّعاً لِلْبَريدِ هُناكَ زَمَناً طَويلاً ، ثُمَّ سَنَحَتْ لي الفُرْصَةُ لِلْحُصولِ على وَظيفَةِ مُوَزِّعِ بَريدٍ في هِلْويك فَقَرَّرْتُ قَبولَها . وَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسي عِدَّةَ مَرّاتٍ عَمّا إذا كُنْتُ قَدِ اتَّخَذْتُ القَرارَ السَّليمَ ، فَلَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ دائِماً أَنْ يَتْرُكَ الإِنسانُ مَكاناً اعْتادَهُ ، وَلكِنَّني الآنَ - وَبَعْدَ سِتَّةِ

أسابيعَ مِن انْتِقالي – تَبَيَّنْتُ أنّني كُنْتُ مُصيباً في قَراري . وَقَدْ عَثَرْنا عَلى دارٍ صَغيرةٍ مُريحةٍ بِحَديقَةٍ لَطيفَةٍ . وَقَدْ أَحْبَبْنا جَوَّ المَدينَةِ الهادِئَةِ ، وَأَنْشَأْنا بَعْضَ الصَّداقاتِ ، وَأَسْعَدَتْنا الحَياةُ كَثيراً في هِلْويك . وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّنا سَنَنْعَمُ بِحَياتِنا فيها .

لَقَدْ أَحْبَبْتُ دائِماً عَمَلي الَّذي يُتيحُ لِي اسْتِنْشاقَ الهَواءِ العَليلِ ، وَمُمارَسَةَ التَّمارينِ الرِّياضِيَّةِ ؛ وَمُوَزِّعُ البَريدِ يَتَمَتَّعُ بِكِلَيْهِما . وَلَوْ كُنْتُ حَصَلْتُ عَلى وَظيفَةٍ مَكْتَبِيَّةٍ لَما أَحْبَبْتُها ، فَإنّي أُبْغِضُ الجُلوسَ إلى مَكْتَبٍ طَوالَ اليَوْمِ .

وَأَحْسَبُ أَنَّ عَمَلي يُعَدُّ مِنَ الأَعْمالِ المُهِمَّةِ ، فَالنّاسُ يَحْتاجونَ إلى مُوَزِّعي البَريدِ لِيُوَصِّلوا رَسائِلَهُمْ سالِمَةً . وَالشَّرِكاتُ تُرْسِلُ الطَّلَباتِ وَتَتَسَلَّمُها بِطَريقِ البَريدِ ، وَلا رَيْبَ في أَنَّ الأَعْمالَ تَتَوَقَّفُ في أَيِّ دَوْلَةٍ إذا لَمْ يَكُنْ هُناكَ بَريدٌ .

لَكِنَّ تَسْليمَ الخِطاباتِ الخاصَّةِ هُوَ بِالنِّسْبَةِ لي أَفْضَلُ شَيْءٍ . وَخِطاباتُ الشَّرِكاتِ وَالمُؤَسَّساتِ لَها أَهَمِّيَّتُها البالِغَةُ ، غَيْرَ أَنَّني – في الحَقيقَةِ – أَشْعُرُ بِمُتْعَةٍ في الذَّهابِ إلى المَنازِلِ لِتَسْليمِ الخِطاباتِ الشَّخْصِيَّةِ . إنَّني أَدْفَعُ بِالخِطاباتِ وَالبِطاقاتِ مِنْ خِلالِ فُتْحاتِ صَناديقِ الخِطاباتِ ، مُتَمَنِّياً أَنْ تَحْوِيَ أَنْباءً سارَّةً . وَهذِهِ الخِطاباتُ

الخاصَّةُ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تَحْمِلَ لِأَصْحابِها الكَثيرَ مِنَ البَهْجَةِ ، فَالأَصْدِقاءُ القُدامى يَكْتُبُ كُلٌّ مِنْهُمْ لِلآخَرِ ، وَالأَبْناءُ يَكْتُبونَ لِآبائِهِمْ وَأُمَّهاتِهِمْ . وَكَمْ يُسْعِدُني أَنْ أُسَلِّمَ هذِهِ الرَّسائِلَ لِأَصْحابِها .

وَلكِنَّ الخِطاباتِ الخاصَّةَ لا يُمْكِنُ أَنْ تَحْمِلَ دائِماً أَنْباءً سارَّةً لِأَصْحابِها ، وَهذا شَيْءٌ بَديهِيٌّ ؛ إذ لا يُمْكِنُني أَنْ أَجْزِمَ بِأَنَّني أَحْمِلُ دائِماً أَنْباءً سارَّةً ، لَكِنَّني أُحِبُّ أَنْ أَرى أَنَّ عَمَلي يُدْخِلُ السُّرورَ إلى قُلوبِ النّاسِ . وَتَحْوي الخِطاباتُ أَحْياناً أَنْباءً سَيِّئَةً ، وَرَغْمَ ذلِكَ فَالغالِبِيَّةُ العُظْمى مِنَ النّاسِ يَتَرَقَّبونَ مَجيءَ مُوَزِّعِ البَريدِ . وَما أَحْلى وَقْعَ صَريرِ فَتْحِ صُنْدوقِ الخِطاباتِ في آذانِهِمْ ، وَهُمْ يَتَطَلَّعونَ إلى بَريدِهِمْ !

كُنْتُ أُفَكِّرُ في كُلِّ هذِهِ الأُمورِ وَأَنا أَسيرُ في شارِعِ غولْد في ذلِكَ الصَّباحِ الصَّيْفِيِّ المُشْرِقِ . وَكانَتِ الغالِبِيَّةُ العُظْمى مِنْ مَبانيهِ مَتاجِرَ وَمَكاتِبَ ، وَقَدْ سَلَّمْتُها جَميعاً رَسائِلَها . وَهكَذا خَفَّ حِمْلُ حَقيبَتي عِنْدَما بَلَغْتُ آخِرَ الشّارِعِ ، حَيْثُ انْعَطَفْتُ يَساراً في شارِعِ تشيرش ، وَبِهذا أَنْجَزْتُ أَشَقَّ جُزْءٍ في عَمَلِ الصَّباحِ . أَمّا بَقِيَّةُ جَوْلَتي فَقَدْ كانَتْ في شَوارِعَ هادِئَةٍ ، وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أُسَلِّمَ رَسائِلَ في سِتَّةِ شَوارِعَ مِنْها قَبْلَ أَنْ أَعودَ إلى مَكْتَبِ البَريدِ .



وَلَمْ تكُنْ ثَمَّةَ خطاباتٌ لِكَثيرٍ مِنَ المَنازل في شارع تشيرش في ذلكَ الصَّباح ، فَبَلَغْتُ آخرَ المَنازلِ بِسُرْعَةٍ ، وَهُوَ المَنْزلُ رَقْمُ ٩٢ . وَكانَ مَعي ثَلاثُ رَسائِلَ على ذلِكَ العُنْوان . وَعِنْدَما فَتَحْتُ بابَ الحَديقَةِ الأَمامِيَّ طَرَقَ مِسْمَعي صَوْتٌ يقولُ : « لَقَدْ نَسيتَ خِطابي أَيُّها المُوَزِّعُ ! »

كانَ الصَّوْتُ قادِماً مِنْ حَديقَةِ المَنْزل رَقْم ٩١ ، حَيْثُ كانَتْ تَقِفُ امْرَأَةٌ أمامَ بابِ المَنْزل . وَقَدِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَراها بِوُضوح في النّاحِيَةِ الأُخْرى ، مِنْ خِلال السّور الخَشَبِيِّ المُنْخَفِض الَّذي يَفْصِلُ بَيْنَ الحَديقَتَيْن .

أَجَبْتُها : « اِنْتَظِري لَحْظَةً مِنْ فَضْلِكِ . سَأُسَلِّمُ هذِهِ الخِطاباتِ في المَنْزل رَقْم ٩٢ ثُمَّ أعودُ إِلَيْكِ . »

وَدَفَعْتُ بِالرَّسائِلِ مِنْ خِلال فُتْحَةِ صُنْدوق الخِطاباتِ في المَنْزل رَقْم ٩٢ ، ثُمَّ سِرْتُ مُتَمَهِّلاً في مَمْشى حَديقَةِ المَنْزل رَقْم ٩١ ، وَفَتَّشْتُ في حَقيبَتي وَلَكِنّي لَمْ أَجِدْ أَيَّ خِطابٍ يَحْمِلُ عُنوانَ ٩١ شارع تشيرش ، هِلْويك .

ظَلَّتِ المَرْأَةُ واقِفَةً هُناك تَنْتَظِرُني وَعَلى وَجْهِها ابْتِسامَةٌ خَفيفَةٌ . وَبَدَتْ موقِنَةً بِأَنَّ لَدَيَّ خِطاباً لَها ، فَقَدْ مَدَّتْ إِلَيَّ يَدَها ، وَاسْتَطَعْتُ

أنْ أرى خاتَماً كَبيراً مِنَ الذَّهَبِ في إصبعِها ، وَقَدْ لَمَعَ شَعْرُها الأشْيَبُ في ضَوْءِ الشَّمْس . وَكانَتْ تَرْتَدي ثَوْباً أخْضَرَ داكِناً ، وَحِذاءً لامِعاً . وَكانَتْ تَبْدو سَعيدَةً لِدَرَجَةِ أنَّني أعَدْتُ تَفْتيشَ حَقيبَتي مَرَّةً ثانِيَةً ، إذْ لَمْ أشَأْ أنْ أرُدَّها حَزينَةً مَكْسورَةَ الفُؤاد .

قالَتْ : « رُبَّما تكونُ بِطاقَةً ، فَإنَّهُ أحْياناً يُرْسِلُ لي خِطاباً وَأحْياناً أخْرى بِطاقَةً .»

كانَ صَوْتُها ناعِماً رَقيقاً ، وَكانَتْ عَيْناها العَسَلِيَّتان تَرْمُقانَني . وَمَضَتْ تَقولُ : « بِطاقَةٌ ، بِطاقَةٌ أوْ خِطابٌ مِن ابني ، أقْصِدُ ، مِن ابْني الَّذي يُقيمُ في أمْريكا . إنَّهُ يَعْمَلُ هُناكَ الآنَ ، وَهُوَ يَعيشُ فيها مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلَةٍ ، وَلَمْ يَنْسَ عيدَ ميلادي . وَالْيَوْمَ عيدُ ميلادي ، أيُّها المُوَزِّعُ !»

« أتَمَنّى لَكِ السَّعادَةَ يا ...» وَحاوَلْتُ الكَلامَ مَعَها ، فَقَدْ كُنْتُ أتَمَنّى أنْ أدْخِلَ إلى قَلْبِها السَّعادَةَ ، وَكُنْتُ أوَدُّ أنْ يكونَ مَعي خِطابٌ لَها ، وَلَكِنَّني كُنْتُ موقِناً بِأنَّهُ لَيْسَ معي شَيْءٌ يَخُصُّها .

« أرْجو أنْ تَبْحَثَ ثانِيَةً أيُّها المُوَزِّعُ . إنَّني موقِنَةٌ مِنْ أنَّكَ سَتَجِدُ في حَقيبَتِكَ خِطاباً أوْ بِطاقَةً لِلسَّيِّدَةِ رُوجرز ... لإميلي رُوجَرْز القاطِنَةِ في المَنْزِل رَقْم ٩١ شارع تشيرش .»

وَتظاهَرْتُ بِالتَّفْتيش في حَقيبَتي مَرَّةً أخْرى ، وَأخْرَجْتُ الرَّسائِلَ القَليلَةَ الباقِيَةَ ، وَتَظاهَرْتُ بِقِراءَةِ العَناوين الَّتي كانَتْ عَلَيْها ، وَأنا أعْرِفُ أنَّني لَمْ أخْطِئْ ، فَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ شَيْءٌ لِلسَّيِّدَةِ رُوجرز ، غَيْرَ أنَّني لَمْ أشَأْ أنْ أحْزِنَها .

وَبَيْنَما كُنْتُ أتَظاهَرُ بِأنَّني أبْحَثُ عَن الخِطابِ المَنْشودِ ، شَعَرْتُ بِالغَضَبِ مِن ابنِها . فَمِنَ القَسْوَةِ أنْ يَنْسى عَيْدَ ميلادِ أمِّهِ ، وَبالطَّبْعِ لَمْ أقُلْ لَها ذلِكَ .

وَوَجَدْتُني آخِرَ الأمْر مُضْطَراً إلى أنْ أتكَلَّمَ ، فَلَمْ يَكُنْ في مَقْدوري أنْ أقِفَ هُناكَ اليَوْمَ بِطولِهِ ، مُتَظاهِراً بِالبَحْثِ عَنْ خِطابِها، فَقَدْ كانَ لَدَيَّ عَمَلٌ أنْجِزُهُ ، وَكانَ عَلَيَّ أنْ أعودَ إلى مَكْتَبِ البَريد.

« أنا آسِفٌ يا سَيِّدَتي ، فَلَيْسَ مَعي خِطابٌ لَكِ ، وَرُبَّما يكونُ ثَمَّةَ خِطابٌ أوْ بِطاقَةٌ فيما بَعْدُ . إنّي جِدُّ آسِفٍ ، إذْ يَجِبُ أنْ ...»

وَتَلاشَتْ الابْتِسامَةُ السَّعيدَةُ مِنْ عَلى وَجْهِ السَّيِّدَةِ ، وَلاحَظْتُ الدُّموعَ تَتَرَقْرَقُ في عَيْنَيْها . وَفَجْأةً ، بَدَتْ وَكَأنَّها شَبَحٌ ضَئيلٌ طاعِنٌ في السِّنِّ !

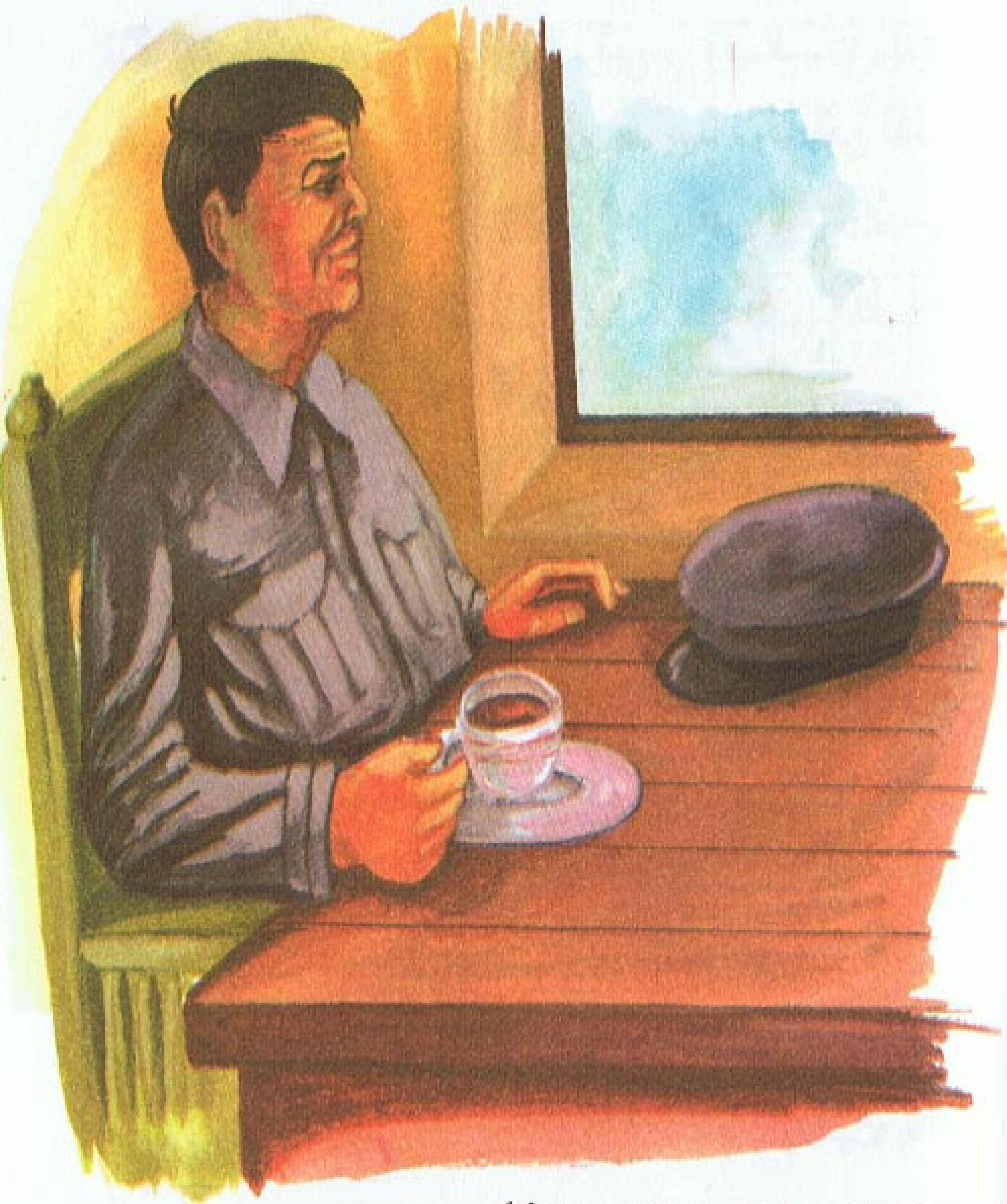
قُلْتُ لَها : « إنَّكِ مَريضَةٌ ، فَدَعيني أساعِدُكِ في الدُّخولِ إلى البَيْتِ .»

قالَتْ : « لا ! لا ! » وكانَ صوتُها واهِناً جداً . وقالت ثانية : « لا ! أنا لا أهْتَمُّ . إنَّهُ ابني .. ابْنِيَ العَزيزُ . لا بُدَّ أنَّ مكْروهاً ألَمَّ بِهِ ، لأنَّهُ لَمْ يَنْسَ هذِهِ المُناسَبَةَ قَطُّ . » وتَرَكَتْني وَمَضَتْ .

أمّا أنا فَقَدْ تَمَهَّلْتُ في سَيْري في مَمْشى الحَديقَةِ حتّى إذا ما بَلَغْتُ البَوّابَةَ الْتَفَتُّ خَلْفي ، فَوَجَدْتُ بابَ المَنْزِلِ رَقْم ٩١ مُغْلَقاً ، وَأنَّ السَّيِّدَةَ قَدِ اخْتَفَتْ .

سَلَّمْتُ كُلَّ ما كانَ في حَقيبَتي مِنْ رَسائِلَ وَبطاقاتٍ ، وَعُدْتُ إلى مَكْتَبِ البَريدِ ، فَقَدْ أنْجَزْتُ عَمَلَ الصَّباح ، وَأصْبَحْتُ حُرّاً حَتّى السّادِسَةِ مِنْ مساءِ ذلِكَ اليَوْم ؛ فَقَدْ كانَ عَلَيَّ أنْ أعودَ إلى مَكْتَبِ البَريدِ لأحْمِلَ الخِطاباتِ الصّادِرَةَ مِنْ هِلْويك ، لأسَلِّمَها في مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الحَديدِيَّةِ لِيَحْمِلَها القِطارُ . وَمَضَيْتُ إلى داري ألْتَمِسُ شَيْئاً مِنَ الرّاحَةِ ، ثُمَّ أقومُ بِبَعْضِ الأعْمالِ في حَديقَتي .

وَرَكِبْتُ دَرّاجَتي حَتّى نِهايَةِ شارِع شيب ، غَيْرَ أنّي لَمْ أبْتَعِدْ كَثيراً ؛ إذْ تَوَقَّفْتُ عِنْدَ مَطْعَم صَغيرٍ ، وَدَخَلْتُهُ وَطَلَبْتُ فِنْجاناً مِنَ القَهْوَةِ . وَلَمْ أكُنْ – في الواقِع – أريدُ القَهْوَةَ بِقَدْرِ ما أرَدْتُ أنْ أعْطِيَ نَفْسي فُرْصَةً لِلتَّفْكيرِ . وَعَلى هذا فَقَدِ اتَّخَذْتُ مَجْلِسي إلى مائِدَةٍ بِجِوارِ النّافِذَةِ الّتي يَغْمُرُها ضَوْءُ الشَّمْس ، وَرُحْتُ أرْقُبُ النّاس



السّائِرينَ في الشّارِع ، فَبَرَدَتِ القَهْوَةُ .

وَلَمْ أسْتَطِعْ أنْ أصْرِفَ تَفْكيري عَنِ السَّيِّدَةِ روجرز ، فَرُحْتُ أفَكِّرُ فيها طَوالَ الصَّباح . يا لَها مِنِ امْرَأةٍ مِسْكينَةٍ ! وَكُنْتُ لا أزالُ أرى الدُّموعَ تَتَرَقْرَقُ في عَيْنَيْها . يا لَهُ مِنْ عيدِ ميلادٍ حَزين بِالنِّسْبَةِ لَها !

فَقَدْ كانَتْ شَديدَةَ الانفعال وَهِيَ تَرْقُبُني . وَقَدْ تَسَبَّبَتْ زِيارَتي لِلْمَنْزِلِ المُجاوِرِ لِمَنْزِلِها في تَعاسَتِها إلى حَدٍّ بَعيدٍ . وَلَمْ يَكُن الذَّنْبُ ذَنْبي أنا ، بِالطَّبْعِ ، إنَّما الذَّنْبُ ذَنْبُ ابْنِها ، فَهُوَ المَلومُ ، إذْ نَسِيَ عيدَ ميلادِها. لَقَدْ تَسَبَّبَ في حُزْنِها ، لأَنَّهُ كانَ مُهْمِلاً ، لا بَلْ أَسْوَأَ مِنْ مُهْمِلٍ – كانَ فَظًّا غَليظَ القَلْبِ !

بَيْدَ أَنّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْسى وَجْهَها الحَزينَ . وَلكِنَّ هذا لَمْ يُفِدِ السَّيِّدَةَ روجرز بِأَيِّ نَفْعٍ . إنَّ الذَّنْبَ ذَنْبُهُ ، وَأَعْرِفُ ذلِكَ ، وَلكِنَّها لا تَزالُ تَعيسَةً ، فَماذا يُمْكِنُني أَنْ أَفْعَلَ ؟

وَخَطَرَتْ لي فِكْرَةٌ لَعَلَّها لَيْسَتْ فِكْرَةً بارِعَةً ، وَلكِنَّها كانَتْ أَفْضَلَ ما أَمْكَنَني التَّفْكيرُ فيهِ ، فَتَرَكْتُ فِنْجانَ قَهْوَتي البارِدَةِ عَلى المائِدَةِ وانْدَفَعْتُ إلى الشّارِعِ ، وَرَكِبْتُ دَرّاجَتي إلى شارِعِ غُولد بِأَسْرَعَ ما اسْتَطَعْتُ ، واتَّجَهْتُ إلى مَحَلٍّ لِبَيْعِ الصُّحُفِ حَيْثُ يَبيعونَ البِطاقاتِ البَريدِيَّةَ المُصَوَّرَةَ ، وَبِطاقاتِ أَعْيادِ الميلادِ ، وانْتَقَيْتُ بِطاقَةً لِلسَّيِّدَةِ روجرز .

وَقَدْ بَذَلْتُ عِنايَةً فائِقَةً في اخْتِيارِ بِطاقَةِ عيدِ الميلادِ ، وَلَمْ يَكُنْ هذا بِالأَمْرِ الهَيِّنِ ، فَقَدْ كانَ الكَثيرُ مِنَ البِطاقاتِ مُناسِباً لِلأَطْفالِ فَقَطْ ، وَكانَ مُعْظَمُ البِطاقاتِ الَّتي لِلْكِبارِ غَيْرَ مُناسِبٍ ، في

تَقْديري ، لِلسَّيِّدَةِ روجرز . وَبِطَبيعَةِ الحالِ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُها جَيِّداً ، فَلَمْ أَرَها إلا مَرَّةً واحِدَةً هذا الصَّباحَ . وَلكِنَّني موقِنٌ بِأَنَّها امْرَأَةٌ حَسّاسَةٌ، أَحْزَنَتْها قَسْوَةُ ابْنِها عَلَيْها. إنَّ الطَّريقَةَ الَّتي كانَتْ تَرْتَدي بِها مَلابِسَها وَطَريقَةَ حَديثِها نَمَّتْ عَنْ حَساسِيَّتِها .

وَأَدْرَكْتُ أَنَّ بِطاقاتِ أَعْيادِ الميلادِ الضّاحِكَةَ لَنْ تَروقَها . فَقَدْ قُصِدَ بِتَصْميمِها أَنْ تَكونَ مُضْحِكَةً ، لكِنَّها لَمْ تُفْلِحْ في أَنْ تَجْعَلَني أَبْتَسِمُ ، وَلَنْ تَجْعَلَ السَّيِّدَةَ روجرز تَبْتَسِمُ هِيَ أَيْضاً ، فَأَفْضَلُها سَخيفٌ وَأَسْوَأُها مُنَفِّرٌ . أَمّا بِطاقاتُ عيدِ الميلادِ الَّتي عَلَيْها صُوَرُ الحَيَواناتِ فَهِيَ سَيِّئَةٌ مِثْلُها . وَقَدْ أَعْياني التَّطَلُّعُ إلى صُوَرِ القِطَطِ وَالكِلابِ وَالجِيادِ ذاتِ الأَلْوانِ القَبيحَةِ . أَمّا الصُّوَرُ الفوتوغْرافِيَّةُ وَالرُّسومُ فَكانَتْ فَظيعَةً ؛ فَالحَيَواناتُ لَمْ تَكُنْ تُشْبِهُ الحَيَواناتِ الحَقيقِيَّةَ ، وَبَعْضُها كانَ يَرْتَدي ثِياباً . قِطَطٌ تَضْحَكُ ! وَكِلابٌ تَبْكي ! وَأَحْصِنَةٌ تَتَكَلَّمُ! إنَّهُ لَيْسَ مِنَ المَعْقولِ أَنْ أُعْطِيَ السَّيِّدَةَ روجرز واحِدَةً مِنْها .

وَأَخيراً عَثَرْتُ عَلى ضالَّتي المَنْشودَةِ . وَكانَتْ نُسْخَةً مِنْ صورَةٍ رَسَمَها تيرنَر المُصَوِّرُ الإنجليزِيُّ العَظيمُ . وَكانَتِ الأَلْوانُ مُتناسِقَةً بِشَكْلٍ رائِعٍ ، وَكانَتْ بِداخِلِها رِسالَةٌ صادِقَةٌ : « عيدُ ميلادٍ سَعيدٌ » ، وَكانَتْ هذِهِ العِبارَةُ هِيَ كُلَّ ما فيها .

وتَحْتَ هذِهِ الرِّسالَةِ كَتَبْتُ : « إلى السَّيِّدَةِ رُوجرز . وَآمُلُ أَنْ آتيكِ غداً بِبِطاقَةِ تَهْنِئَةٍ مِن ابْنِكِ .» وَوَقَّعْتُ بِاسْمي ، وَأَضَفْتُ إِلَيْهِ عِبارَةَ « مُوَزِّع البَريدِ » .

وَشَعَرْتُ بِتَحَسُّنٍ في نَفْسي عِنْدَما فَعَلْتُ ذلِكَ ، فَسَوْفَ تَتَلقّى السَّيِّدَةُ رُوجرز بِطاقَةَ تَهْنِئَةٍ بِعيدِ ميلادِها ، رَغْمَ كُلِّ الظُّروفِ . وَبِطَبيعَةِ الحالِ فإنَّ أَلْفَ بِطاقَةِ تَهْنِئَةٍ مِنْ غَريبٍ لا تُضارِعُ واحِدَةً مِن ابْنِها ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ هذا ، وَأَعرِفُ أَنَّني لَنْ أَسْتَطيعَ إِدْخالَ البَهْجَةِ إلى نَفْسِها كَما كانَ سَيَفْعَلُ هُوَ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ إِلَيْها بِبِطاقَةٍ في عيدِ ميلادِها ، أَمّا أنا فَفَعَلْتُ . وَعَلى الأَقَلِّ سَوْفَ تَعْرِفُ أَنَّ ثَمَّةَ أَحَداً يُفَكِّرُ فيها ، وَلَنْ تَشْعُرَ بِالحُزْنِ الَّذي شَعَرَتْ بِهِ .

وَقُدْتُ دَرّاجَتي في شارِعِ غُولد ، وَانْعَطَفْتُ في آخِرِهِ إلى شارِعِ تشيرش . وَكانَتْ ثَمَّةَ شاحِنَةٌ كَبيرَةٌ رابِضَةٌ أَمامَ أَحَدِ المَنازِلِ تعوقُ حَرَكَةَ المُرورِ . وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَنْتَظِرَ ، فالرِّحْلَةُ إِلى المَنْزِلِ رَقْم ٩١ سَتَكونُ بَطيئَةً .

وَأَخَذْتُ أُفَكِّرُ في مَشاكِلِ اليَوْمِ وَأَنا مُنْتَظِرٌ تَحَرُّكَ الشّاحِنَةِ . لِمَ كُلُّ هذا العَناءِ الَّذي فَرَضْتُهُ على نَفْسي ؟ كانَ بِمَقْدوري أَنْ أَكونَ في بَيْتِي الآنَ ، أَوْ في الحَديقَةِ أُنَسِّقُها . لِماذا أُحاوِلُ الاهْتِمامَ

بِالسَّيِّدَةِ رُوجرز ؟ لِماذا لَمْ أَرَها وَلا مَرَّةً واحِدَةً قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَني اليَوْمَ ؟ إِنَّني أَعْمَلُ في هِلْويك مُنْذُ سِتَّةِ أَسابيعَ ، وَأُسَلِّمُ الخِطاباتِ في شارِعِ تشيرش طَوالَ هذِهِ الأَسابيعِ السِّتَّةِ ، وَلَمْ يُصادِفْني خِطابٌ لِلْمَنْزِلِ رَقْم ٩١ ، وَلَمْ أُسَلِّمْ أَيَّ شَيْءٍ في ذلِكَ العُنْوانِ ، وَلَمْ أُشاهِدْ مِنْ قَبْلُ السَّيِّدَةَ رُوجرز أَمامَ بابِها ، أَوْ في حَديقَتِها ، أَوْ بِبَوّابَةِ الحَديقَةِ .

وَبَدا لي الأَمْرُ غَريباً ، بَيْدَ أَنّي لَمْ أَسْتَطِعْ حَلَّ هذا اللُّغْزِ . وَهُنا بَدَأَ المُرورُ يَتَحَرَّكُ ، فَيَمَّمْتُ بِدَرّاجَتي شَطْرَ مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ رُوجرز .

وَتَرَجَّلْتُ عِنْدَ بابِ الحَديقَةِ . وَبَيْنَما كُنْتُ سائِراً في مَمْشى الحَديقَةِ سَأَلْتُ نَفْسي : « أَأُلْقي بِالبِطاقَةِ مِنْ خِلالِ فُتْحَةِ صُنْدوقِ الخِطاباتِ ثُمَّ أَنْصَرِفُ ؟» لكِنَّني قُلْتُ لِنَفْسي : « إِنَّ هذا تَصَرُّفٌ غَيْرُ وُدِّيٍّ في عيدِ ميلادِها ؛ إِذْ إِنَّ حَديثي مَعَها قَدْ يُدْخِلُ السُّرورَ إِلى نَفْسِها .»

وَكُنْتُ أُريدُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْها ، وَأُدْخِلَ البَهْجَةَ إِلى نَفْسِها . كُنْتُ أُريدُ أَنْ أَراها مَرَّةً أُخْرى ، لأُعْطِيَها البِطاقَةَ بِنَفْسي كَيْ تَشْعُرَ بِأَنَّني أُحاوِلُ الاهْتِمامَ بِها .

وَعَلى هذا طَرَقْتُ بابَها بِصَوْتٍ عالٍ ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَقَدْ رَفَعْتُ البِطاقَةَ أَمامي . وَرُحْتُ أُحَمْلِقُ إِلى نافِذَتِها ، وَانْتَظَرْتُ أَنْ يُفْتَحَ

الباب .

« لَنْ يَرُدَّ عليْكَ أحَدٌ يا مُوَزِّعَ البَريدِ .»

الْتَفتُّ فإذا بالصَّوْتِ قادمٌ مِنْ حَديقَةِ المَنْزِل رَقْم ٩٢ ، وَكانَتْ ثَمَّةَ امْرأةٌ واقفَةٌ تُحَدِّقُ إليَّ ، وَكُنْتُ قَدْ رَأَيْتُها مِنْ قَبْلُ ، فَهِيَ تَسْكُنُ في هذا المَنْزِلِ ، وَاسْمُها السَّيِّدَةُ سپارْسُون . وَقَدْ دَأَبَتْ على مُراقَبَتي مِنْ خِلالِ نافِذَتِها وَأَنا أُسَلِّمُ ما مَعي مِنْ خِطاباتٍ .

وَلَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ في الحَديثِ إِلَيْها ، بَيْدَ أَنَّهُ كانَ عَلَيَّ أَنْ أُكَلِّمَها ؛ إِذْ بَدَتْ وَكَأَنَّها تَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ السَّيِّدَةِ رُوجرز .

قُلْتُ لها : « لَسْتُ أَفْهَمُ !»

« أقولُ لكَ ، أَيُّها المُوَزِّعُ ، إِنَّهُ لَنْ يَرُدَّ عَلَيْكَ أَحَدٌ أَبَدًا .»

« لكِنْ مَعي بِطاقَةٌ لِلْمَنْزِلِ رَقْم ٩١ .»

قالَتْ : « هذِهِ الدّارُ لا يَسْكُنُها أَحَدٌ .»

قُلْتُ ثانِيَةً : « إِنَّ معي بِطاقَةَ عيدِ ميلادٍ لِلسَّيِّدَةِ رُوجرز ، وَالْيَوْمَ هُوَ عيدُ ميلادِها .»

قالَتْ : « أَعْرِفُ أَنَّ الْيَوْمَ هُوَ عيدُ ميلادِها ، أَوْ عَلى الأَقَلِّ كانَ

عيدَ ميلادِها .»

سَأَلْتُها : « أَتقولينَ كانَ ؟ ماذا تَعْنينَ ؟»

« أَعْني أَنَّ المَنْزِلَ رَقْم ٩١ خالٍ مِنَ السُّكّانِ ، وَأَعْني أَنَّ السَّيِّدَةَ رُوجرز غَيْرُ مُقيمَةٍ فيه ، بَلْ لا أَحَدَ يُقيمُ فيهِ . وَلَمْ يُقِمْ فيهِ أَحَدٌ طَوالَ السَّنَةِ الماضِيَةِ .»

« لكِنَّني رَأَيْتُ السَّيِّدَةَ رُوجرز هذا الصَّباحَ .»

قالَتِ السَّيِّدَةُ سپارْسُون : « كُنْتَ تَحْلُمُ !»

« لَقَدْ كانَتْ تَنْتَظِرُني ، وَقالَتْ لي إِنَّهُ عيدُ ميلادِها . وَكانَتْ تَأْمُلُ في أَنْ تَتَلَقّى بِطاقَةً مِن ابْنِها الَّذي يَعيشُ في أَمْريكا .»

وَبَدا صَوْتُ السَّيِّدَةِ سپارْسُون أَعْلى وَهِيَ تَقولُ : « لَقَدْ كانَ يَعيشُ في أَمْريكا . أَنْصِتْ إِلَيَّ يا مُوَزِّعَ البَريدِ ؛ مُنْذُ عامٍ مَضى وَفي مِثْلِ هذا الْيَوْمِ ، كانَتِ السَّيِّدَةُ رُوجرز تَنْتَظِرُ بِطاقَةَ تَهْنِئَةٍ بِعيدِ ميلادِها مِن ابْنِها ، الَّذي لَمْ يَنْسَ عيدَ ميلادِ أُمِّهِ قَطُّ . وَلَمْ تَصِلْ بِطاقَةُ التَّهْنِئَةِ ، وَلكِنْ وَصَلَتْها في الْيَوْمِ نَفْسِهِ بَرْقِيَّةٌ مَضْمونُها أَنَّ ابْنَها قَدْ لَقِيَ مَصْرَعَهُ في حادِثِ سَيّارَةٍ .»

قُلْتُ : « مِسْكينَةٌ السَّيِّدَةُ رُوجَرْز ! يا لَهُ مِنْ نَبَإٍ فَظيع ! وَفي عيدِ ميلادِها أيْضاً ! لَقَدْ كانَتْ حَقًّا رِسالَةً فَظيعَةً تَتَلَقّاها في عيدِ ميلادِها .»

قالَتِ السَّيِّدَةُ سپارْسُون : « هذا صَحيحٌ . وَقَدْ قَضَتْ نَحْبَها في مَساءِ اليَوْم نَفْسِهِ . ماتَتْ يَوْمَ عيدِ ميلادِها ، مُنْذُ عام مَضى . ماتَتْ كَسيرَةَ القَلْبِ .»

وَقَفْتُ لَحْظَةً بِلا حَراكٍ وَراحَتِ السَّيِّدَةُ سپارْسُون تُحَدِّقُ إلَيَّ ، ثُمَّ سارَتْ نَحْوَ بابِها قائِلَةً : « إنَّني لا أسْتَطيعُ الوُقوفَ هُنا طَوالَ الصَّباح ، فَإنَّ لَدَيَّ عَمَلاً لا بُدَّ أنْ أنْجِزَهُ .»

وَسَمِعْتُها تُغْلِقُ بابَها ، فَوَضَعْتُ بِطاقَةَ السَّيِّدَةِ رُوجَرْز في جَيْبي وَمَشَيْتُ مُتَثاقِلاً نَحْوَ بابِ الحَديقَةِ .



المغامرات المثيرة

١- مغامرة في الأدغال
٢ - مغامرة في الفضاء
٣ - مغامرة أسيرين
٤ - مغامرة في الجزيرة الخضراء
٥ - مغامرة على الشاطئ
٦ - الجاسوس الطائر
٧ - لصوص الطريق
٨ - حمد الغواص الشجاع
٩ - اللصان الغبيان
١٠- مطاردة لصوص السيارات
١١- مغامرات السندباد البحري
١٢- لعبة خطرة
١٣- الحشرة الذهبية وقصص أخرى
١٤- اللؤلؤة السوداء
١٥- سر الجزيرة
١٦- مغامرة في النهر
١٧- إميل والمخبرون السريون
١٨- شبح الحديقة وقصص أخرى
١٩- سر الدرجات التسع والثلاثين



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم الكمبيوتر 01 C 198218


ARAB COMICS
AC
عرب كوميكس
www.arabcomics.net